﴿...وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾

(١)

محسن الأسدي.[١]

لعلّنا في هذه المقالة، نوفّق في دراسة آيات قرآنيّة، ذُكرت فيها مفردة النسك ومشتقاته، وبيان مدى علاقتها بالحجّ والعمرة أحكاماً ومفاهيم وآداباً وتأريخاً..، بل تطلق في الأعم الأغلب على ما يتضمنه الحجُّ من شعائر وعبادات ومواقع، إن لم نقل قد اختصّت بها... وهو ما نريد الوقوف عنده في هذه المقالة بأكثر من حلقة إن شاء الله تعالى.

***

والآيات التي توفّرت فيها مفردة النسك والمنسك ..

في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٢: ١٢٨ .

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ

---

١. محقق و باحثٌ ديني .

فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ٢: ١٩٦.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى ٱلآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ ٢: ٢٠٠.

في سورة الأنعام: ١٦٢ ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

في سورة الحجّ: ٣٤ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ ٱلأَنْعَامِ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِى ٱلأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾: ٦٧.

ولم يكن هناك في التنزيل العزيز إلّا هذه الآيات ذكرت هذه المفردات: مَنَاسِكَنَا، نُسُكٍ، مناَسِكَكُمْ، ونُسُكِي، مَنسَكاً، مَنسَكاً، نَاسِكُوهُ.

والتي جاءت سبع مرّات في ستَّة مواضع من آيات قرآنيّة مباركة، لعلّ أغلبها إن لم يكن جميعها تشير إلى الحجّ والعمرة أعمالاً كالإحرام والطواف والسعي... ومواضع أو مواقف؛ عرفة؛ والمشعر ومنى... وفي رأيي أنَّ هذه المواضع أو المعالم وتلك الأعمال، والتي تكفّلت الكتب والرسائل الفقهيّة تفصيل أحكامها الشرعية... سمّيت مناسك؛ إمّا لأنها الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شرّ، أو لأنها الأماكن التي يُتردّد إليها في الحجّ والعمرة، أو لأنها جمع «مَنْسك»، وهو الموضع الذي ينسك لله فيه، ويتقرّب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إمّا بذبح ذبيحة له، وإمّا بصلاة أو طواف أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة ولذلك قيل ـ والكلام للطبري ـ لمشاعر الحجّ: مناسكه؛ لأنها أمارات وعلامات

يعتادهـا النـاس، ويتردّدون إلـيها. أو أنَّ النسـك هـو العبادة وأنَّ الناسـك هـو العابد، وقـد اختـصّ بأعمال الحـجّ، أو أنه شـاع بأعمال الحـجّ، أو هي كـما يقول قتـادة: الطواف بالبيـت، والسـعي بين الصفا والمـروة، والإفاضة عـن عرفات والإفاضة مـن جمع ورمي الجمار حتـى أكمـل الله الدين.

ووصـف الشـيخ الطـوسي قـول قتـادة هـذا بعـد أن ذكـره أيضـاً مـع أقـوال في تبيانه بقولـه: فهـذا القـول أقـوى؛ لأنّـه العـرف في معنى المناسـك.

ولعـلَّ هنـاك غير هذا نجـده في أقوالهم. فهذا الشـيخ الطـبري في تفسـيره لقوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ...** ﴾. سـورة الحـجّ: ٣٤، ٦٧ .

بعد أن يذكر:.. أنَّ أصل الـمنسك فـي كلام العرب الـموضع الـمعتاد الذي يعتاده الرجـل ويألفـه لـخير أو شرّ، يقـال: إنَّ لفلان منسـكاً يعتـاده: يـراد مكاناً يغشـاه ويألفه لـخير أو شرّ.

يقول: وإنـما سمّيت مناسك الـحجّ بذلك، لتردّد الناس إلـى الأماكن التـي تعمل فـيها أعمال الـحجّ والعُمرة.

أو ... ولذلـك قـيـل لـمشاعر الـحجّ: مناسـكه؛ لأنها أمـارات وعلامـات يعتادها النـاس، ويـتردّدون إلـيها. هـذا مـا خلص إليـه الطبري.

وكـذا قالهـا الْفَرَّاءُ: «وَ بِهِ سُـمِّيَتِ المَناسِـكُ»، ولكن بعد أن ذكر: المَنْسَـكُ والمَنْسِـكُ فِي كَلامِ الْعَـرَب؛ الْمَوْضِـعُ الْمُعْتَادُ الَّـذِي تَعْتَادُهُ. وَيُقَالُ: إنَّ لِفُلانٍ مَنْسِـكاً يَعْتَـادُهُ فِي خَيْرٍ كَانَ أو غَيْرِهِ،...

مضيفاً قول الشاعر ذي الرمة:

وربَّ القلاص الخوص تدمى أنوفها بنخلة والساعين حول المناسك ...

فيـما **ابْـنُ الأَثِير** بعد أن يذكر:.. ومَنْسِـك، بفَتْح السِّـين وَكَسْرهَـا، وَهُوَ المتَعَبَّـد وَيَقَعُ عَلَى الْمَصْـدَر وَالزَّمَـان وَالْمَكَان، يقولهـا واضحةً صريحةً: ثُمَّ سُـمِّيَتْ أمور الْحَجِّ كُلُّهَا مَناسـك.

وعن قتادة؛ المناسك: معالم الحجّ. أو هي جميع أفعال الحجّ كما عن غيره...

أما **الراغب** فيذهب إلى اختصاصه بأعمال الحجّ؛ حيث يقول: نسك: النسك العبادة والناسك العابد، «واختصّ بأعمال الحجّ».

وكذلك يقول **البيضاوي**: والنُّسُك في الأصل غاية العبادة، وشاع في الحجّ؛ لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة...

والكلام نفسه ردده بعده كلٌّ من **ابن عجيبة والفيض الكاشاني** في تفسيريهما وكذا **الآلوسي**.

فيما **القرطبي** ذكر الاختلاف دون ترجيح لرأي، مكتفياً بقوله: وهو في الشرع اسم للعبادة يقال: رجل ناسك إذا كان عابداً.

وهذا كلامه: إنَّ أصل النُّسك في اللغة الغسل يقال منه: نسك ثوبه إذا غسله. وهو في الشرع اسم للعبادة يقال: رجل ناسك إذا كان عابداً. واختلف العلماء في المراد بالمناسك هنا فقيل: مناسك الحجّ ومعالمه قاله قتادة والسُّدي... وقيل: جميع المتعبَّدات. وكلّ ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى يقال له: مَنْسَك ومَنْسِك. والناسك: العابد.

قال النحاس: يقال نَسَك يَنْسُك، فكان يجب أن يقال على هذا: مَنْسُك، إلّا أنه ليس في كلام العرب مَفْعُل.

محمد رشيد رضا: والمنسك... معناه غاية العبادة، وغلب استعمال النسك في عبادة الحجّ خاصّة، والمناسك في معالمه أو أعماله.

إذن فالمناسك وهي جمع منسك بفتح السين وكسرها، ويقع على المصدر والزمان والمكان، هو: المتعبد؛ وسميت أمور الحجّ كلّها مناسك.

والمنسك: المذبح، وقد نسك ينسك نسكاً إذا ذبح، والنسيكة: الذبيحة.

قال مجاهد وعطاء وابن جُريج عن القرطبي: المناسك المذابح أي مواضع الذبح...

ومن كلامهم: النسك: الطاعة والعبادة، وكلّ ما تُقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ.

والنسك: ما أمرت به الشريعة، والورع ما نهت عنه، والنسك: العبادة، الناسك: العابد. والمناسك: مواقف النسك وأعمالها. واختصّ بأعمال الحجّ والذبيحة واحدة منها ولها أهمية كبرى.

وحتى جاء في تفسير الآية، البقرة: ١٢٤ ﴿**وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ...**﴾.

أقوال منها: ما ذهب إليه كلٌّ من الربيع وقتادة؛ أنَّ الكلمات الواردة في الآية الكريمة هي: «منسك الحجّ». وفي تفسير الكشاف؛ قيل: هي مناسك الحجّ، كالطواف والسعي والرمي والإحرام والتعريف وغيرهنّ.

فيما قال جماعة: تلك الكلمات مناسك الحجّ خاصة. وقال بعضهم: بل الكلمات التي ابتلي بهن عشر خلال... وبعضهنّ في مناسك الحجّ. وفي قول:.. وأربعة في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ...**﴾. قال: منهن مناسك الحجّ. وعنه: ابتلاه بالمناسك. وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿**إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾. إماماً في مناسك الحجّ.

وعن مجاهد في قوله: ﴿**وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...**﴾. قال الله لإبراهيم: إني مبتليك بأمر، فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين. قال: تجعل البيت مثابةً للناس. قال: نعم. وأمْناً قال: نعم. وتجعلنا مسلمين لك، ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك قال: نعم. وترينا مناسكنا وتتوب علينا. قال: نعم. قال: وتجعل هذا البلد آمناً قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم قال: نعم.[١]

أقول: وقد ذكرتها آيات قرآنيّة، ويبدو أنَّ مجاهداً لم يُجهد نفسه سوى اقتباسها من التنزيل العزيز.

١. انظر تفصيلها عند الطبري في تفسيره: الآية: ١٢٤.

وهنـاك ردٌّ لهـذا ولغـيره، كما ذكر صاحب تفسـير المنار قـال: وقال شـيخنا في الدرس: جعـل التكليـف بالكلـمات؛ لأنهـا تـدل عليها، وتعـرف بهـا عـادةً، ولم يذكـر الكلمات ما هـي ولا الإتمـام كيـف كان؛ لأنَّ العـرب تفهـم المـراد بهـذا الإبهـام والإجمـال، وأنَّ المقام مقـام إثبـات أنَّ الله تعالى عامل إبراهيـم معاملة المبتلي، أي المختبر لـه؛ لتظهر حقيقة حاله، ويترتـب عليهـا مـا هو أثـر لها، فظهـر بهذا الابتـلاء والاختبـار فضلـه بإتمامه مـا كلفه الله تعـالى إيـاه وإتيانـه به على وجـه الكـمال. هذا هـو المبادر.

وبعـد كلامـه هـذا يقـول: ولكـنَّ المفسريـن لم يألـوا في تفسـير الكلـمات والخبـط في تعيينهـا، فقـال بعضهـم: إنَّهـا مناسـك الحـجّ،...

ومـع هـذه الإشـارة، نذكـر التلخيص التـالي عن المـراد من النسـك أو معانيـه: فمما لا ريـب فيه عندهـم أنَّ النسـك يتضمن العبـادة والطاعة، بـل حقيقته العبادة، ومنه يسـمى العابـد الناسـك، مـع توفّـر نيـة التقـرّب إلى الله تعـالى، والآية ١٦٢ مـن سـورة الأنعام في هـذا واضحة إذ تقول: وسـيأتي الـكلام عنها. ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

ومـع ذلـك، فإنَّ النسـك وجمعه مناسـك، كما تحدثوا، جـاءت بمعانٍ عديـدة، فهي تأتي بمعنـى: الدِّيـن.. العبادة مطلقاً.. المتعبـد.. تعبداتنا.. الذبائح التي يُتقـرّب بها إلى الله تعالى، أو الموضـع الـذي تقـدّم فيـه الذبائـح قربـةً إلى الله تعـالى.. شـعائر الحـجّ، ومنهـا: الأماكن التـي تـؤدّى فيها شـعائر الحـجَّ. كالصَّفَا والمَـرْوَة، وهما من شـعائر الله بنصّ القرآن: سـورة البقـرة: ١٥٨ ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾.[١]

١. انظـر في هـذا كلّـه الطـبري (ت٣١٠ هــ) في جامـع البيـان في تفسـير القـرآن؛ وابـن الأثـير في تـاج العـروس للزبيـدي ١٣: ٦٥٨؛ لسـان العـرب لابـن منظـور ١٠: ٤٩٩؛ ومفردات القـرآن للراغب: ٤٩٠-٤٩١؛ تفسـير أنـوار التنزيـل وأسرار التأويـل، البيضـاوي (ت ٦٨٥هــ) الآيـة ١٢٨ البقـرة؛ تفسـير القـرآن، ابـن عبد السـلام (ت٦٦٠ هـ)؛ الصـافي في تفسـير كلام الله الوافي للفيض الكاشـاني

وهذه الخلاصة تدعو إلى تتبع مفردة النسك ومشتقاتها في مصادرها اللغوية والتفسيرية والحديثية، وما ورد عن أهل اللغة لايبتعد كثيراً عما ذكره أهل التفسير والحديث.

النسك لغةً وأنواعه:

نَسَكَ فلانٌ ينسُك نِسْكاً ونَسْكاً ونُسْكاً؛ ونَسْكَةً، ومَنْسِكاً ومَنْسَكاً: تَزهَّد وتَعَبَّد.

(نَسُكَ) نُسْكاً، ونَساكة: صار ناسِكاً. (انْتَسَكَ): تزهَّد وتعبَّد. (تَنَسَّكَ): انْتَسَك.

(النَّاسِكُ): المتعبِّد المتزهِّد. (ج) نُسَّاكٌ.. (النَّاسِكَةُ): المتعبِّدة..

(المَنْسَكُ): طريقة الزُّهد والتعبُّد. يُقال: إنَّ له مَنسِكاً ومَنسَكاً ينسُكه، وفي التنزيل العزيز: سورة الحجّ؛ الآيتان:٦٧، ٣٤ وسنقف عندهما.

و المَنسَكُ والمَنْسِكُ، «مَنْسَكاً» مرّةً تأتي بفتح السين على أنَّها مصدر ميمي. وأخرى تأتي بكسر السين على أنَّها اسم مكان، فهو على هذا موضعٌ تُذْبَح فيه النَّسيكة. (ج) مَناسِك.

و(مَنَاسِك الحجّ): عباداتُه. وفي التنزيل العزيز: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ ...**﴾. سورة البقرة: ٢٠٠.

(النُّسُكُ): كلُّ حقٍّ لله تعالى. و الذَّبيحةُ يُتَقَرَّب بها إلى الله. والنسك بضمتين: اسم منه، وفي التنزيل: ﴿**إِنَّ صلاتي ونُسُكي**﴾. و ذبح ذبيحةً تقرَّب بها إلى الله.

(ج) نُسُكٌ، ونَسائِك. وفي التنزيل العزيز: ﴿**فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾. سورة البقرة: ١٩٦.

ابن منظور: نسك: النُّسْكُ والنُّسُك: الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ، وَكُلُّ مَا تُقُرب بِهِ إلى الله

(ت١٠٩٠ هـ)؛ تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (ت١٢٢٤هـ)؛ تفسير روح المعاني، الآلوسي (ت١٢٧٠ هـ)؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي؛ الكشاف للزمخشري: الآية: ١٢٤ البقرة؛ تفسير مكّي، مكّي بن أبي طالب (٤٣٧ هـ)؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)...

تَعَالَى، وَقِيلَ لِثَعْلَب: هَلْ يُسَمَّى الصَّوْمُ نُسُكاً؟ فَقَالَ: كُلُّ حَقٍّ للهِ عزَّ وَجَلَّ يسمى نُسُكاً .

نَسَك الله تَعَالَى يَنْسُكُ نَسْكاً ونِسْكاً ونَسُكَ، الضَّمُّ عَن اللِّحْيَانِيِّ،...

وَرَجُلٌ ناسِك: عَابدٌ. وَقَدْ نَسَك وتَنَسَّكَ أي تَعَبَّدَ. ونَسُك، بالضَّمِّ، نَساكة أي صَارَ نَاسِكًا، وَالْجَمْعُ نُسَّاك.

والمَنْسَك والمَنْسِك: المَذْبَحُ. وَقَدْ نَسَكَ يَنْسُك نَسْكاً إذا ذَبَحَ... والنُّسُكُ والنِّسيكة: الذَّبيحَةُ، وَقِيلَ: النُّسُك: الدَّمُ، والنَّسِيكة: الذَّبيحَةُ، تَقُولُ: مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَعَلَيْهِ نُسُك أي دَمٌ يُهَرِيقُه بمَكَّةَ، شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَى، وَاسْمُ تِلْكَ الذَّبيحَةِ النَّسِيكَة، وَالْجَمْعُ نُسُك ونَسَائِكُ. والنُّسُك: مَا أمرت بهِ الشريعةُ، والوَرَع: مَا نَهَتْ عَنْهُ.

وَقِيلَ: المَنْسَكُ النَّسْك نَفْسُهُ. والمَنْسِكُ: المَوْضِعُ الَّذِي تُذْبَحُ فِيهِ النَّسِيكة والنَّسائك. النَّضْرُ: نَسَك الرجلُ إِلى طَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ أي دَاوَمَ عَلَيْهَا. ويَنْسُكون البيتَ: يأتونه.

وَقَالَ أبو إسحاق: قرئَ ﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً**﴾. ومَنْسِكاً، قَالَ: والنَّسْكُ فِي هَذَا المَوْضِع يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى النَّحْر؛ كأنه قَالَ: جَعَلْنَا لِكُلِّ أمّة أن تَتَقربَ بأن تَذْبَحَ الذَّبَائِحَ للهِ، فَمَنْ قَالَ: مَنْسِك فَمَعْنَاهُ مَكَانُ نَسْك مِثْلَ مَجلِس مَكَانُ جُلُوس، وَمَنْ قَالَ: مَنْسَك فَمَعْنَاهُ المَصْدَرُ نَحْوَ النُّسُك والنُّسُوك.

غَيْرُهُ: والمَنْسَك والمَنْسِك المَوْضِعُ الَّذِي تُذْبَحُ فِيهِ النُّسُك، وقرئَ بِهِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ**﴾.

وَقَالَ الْفَرَّاءُ: المَنْسَكُ والمَنْسِكُ فِي كَلام الْعَرَب؛ المَوْضِعُ المعْتَادُ الَّذِي تَعْتَادُهُ. وَيُقَالُ: إِنَّ لِفُلانٍ مَنْسِكاً يَعْتَادُهُ فِي خَيْر كَانَ أو غَيْرِه، و بِهِ سُمِّيَتِ المَناسِكُ.

ابْنُ الأَثير: قَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ المَناسِك والنُّسُك والنَّسِيكة فِي الْحَدِيث، فالمَناسك جَمْعُ مَنْسَك ومَنْسِك، بفَتْح السِّين وَكَسْرهَا، وَهُوَ المتَعَبَّد وَيَقَعُ عَلَى المصْدَر وَالزَّمَان وَالْمَكَان، ثُمَّ سُمِّيَتْ أمور الْحَجِّ كُلُّهَا مَناسك.

الراغب: نسك: النسك العبادة والناسك العابد، واختصّ بأعمال الحجّ، والمناسك مواقف النسك وأعمالها، والنسيكة مختصّة بالذبيحة، قال: ﴿**فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾. سورة البقرة: ١٩٦ .

- ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ...**﴾. سورة البقرة: ٢٠٠ .

- ﴿**مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ**﴾.

والمَنْسَك والمَنْسِكُ: شِرْعة النَّسْك. وَ فِي التَّنْزيل: ﴿**وَأَرِنا مَناسِكَنا...**﴾. أي مُتَعَبَّداتِنا... وَقِيلَ: المَنْسَكُ النَّسْك نَفْسُهُ.

والنُّسُك: مَا أمرت بهِ الشريعةُ، والوَرَع: مَا نَهَتْ عَنْهُ.

ولعلّها كناية ما أجملها للناسك!

تلك التي نجدها في كلام ذكره بعض أهل اللغة في معاني هذه المفردة (نسك، النسك، المناسك) والتي لاتخلو من جمال وجلال، تصلح أن تكون كنايةً عن تخليص النفس مما لحق بها من أدران وتصفيتها وتطهيرها، وهو قولهم: إنَّ أَصْلَ النُّسُكِ فِي اللُّغَةِ الْغَسْلُ يُقَالُ مِنْهُ نَسَكَ ثَوْبهُ إذَا غَسَلَهُ، و الثَّوبَ ونحوه نَسْكاً: غسله بالماء فطهَّره. والأَرضَ: طيَّبَها وسمَّدَهَا. و البيتَ: أتاه، نَسَك الرجلُ إلى طَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ أي دَاوَمَ عَلَيْهَا، وأجملها أنهم يَنْسُكون البيتَ أي يأْتونه...

ونَسَك الثَّوْبَ: غَسَلَهُ بِالْماءِ وَطَهَّرَهُ، فَهُوَ مَنْسوك؛ وَقَدْ أُنْشِدَ فِيهِ بَيْتُ شِعْر:

ولا يَنْبتُ المَرْعَى سِباخُ عُراعِر وَلَوْ نُسِكَتْ بِالْماءِ سِتَّةَ أَشْهُر

وأرض ناسِكة: خَضْرَاءُ حَدِيثَةُ المطَر، فَاعِلَةٌ بمَعْنَى مُفْعولَةٍ.

ابْنُ الأَعرابي: النُّسُك سَبائك الْفِضَّةِ؛ كلُّ سَبيكة مِنْهَا نَسِيكَةٌ، وَقِيلَ لِلْمُتَعَبِّدِ ناسِكٌ؛ لأَنه خَلَّص نَفْسَهُ وَصَفَّاهَا لله تَعَالَى مِنْ دَنَس الْآثَام كالسَّبيكة المُخَلَّصة مِنَ الخَبَثِ.

وكذا **قال ثَعْلَبٌ** لما سُئِلَ عَن النُسكِ، أو عن النَّاسِكِ مَا هُوَ؟

فَقَـالَ: هُـوَ مأخـوذ مِـنَ النَّسِـيكة، وَهُـوَ سَـبيكة الفِضـة المُصَفَّـاة كأنـه خَلَّص نَفْسَـهُ وَصَفَّاهَـا لله عَـزَّ وَجَـلَّ.

وفي قول عنه: النَّسِيك: الذَّهَبُ، والنَّسِيك: الْفِضَّةُ. والنَّسِيكة: الْقِطْعَةُ الْغَلِيظَةُ مِنْهُ.

وبـما أنَّ النسـك هـو أصل العبـادة، وبـأنَّ المتعبّد ناسِـكٌ؛ لأَنه خَلَّـص نَفْسَـهُ وَصَفَّاهَا لله تَعَـالَى مِـنْ دَنَـس الْآثَام كالسَّـبيكة المُخَلَّصـة مِنَ الخَبَثِ. وأنَّ أصل النسـك هو الغسـل والتطهـير والتطييـب... كـما صُرّح بـه من قِبَـل أهل اللغة والتفسـير، يمكـن أن يتضح أنَّ تسـمية أعمال الحج وشـعائره بالمناسـك، له هذه المناقبيـة الرائعة والصفـات الجميلة والتي تتضمـن منافـع هـذه الفريضة المباركة سـواء أكانـت روحيـة أو أخلاقية أو ماديـة... وكما ذكر النَّضْرُ في لسـان العرب: نَسَـك الرجـلُ إِلى طَريقَـةٍ جَمِيلَـةٍ أَي دَاوَمَ عَلَيْهَا...

فـما أجملهـا طريقـةً؛ مناسـك الحـجّ وشـعائره، ورؤيـة الحجـاج مُحرمين ملبّـين يبتغون فضلاً مـن ربِّهـم وتطهـيراً ومغفـرةً ورضواناً!

ولعـلَّ لهـذا والله أعلـم، سـمّيت بالمناسـك، وهـي مفردة جميلـة وصفت بهـا في الأعم الأغلـب منظومـة الحـجّ والعمـرة دون غيرهـا مـن العبـادات الأُخـر؛ واجبـة ومسـتحبة وهي كثـيرة..!

ونختـم هذا بما نُسـب إلى أبي العـلاء المعري من أنَّ النسـك عنده هو الديـن، وأنَّ الحقّ منـه ما كان عـن يسر في صحة واقتـدار، يقول:

الديـن هجـر الفتى اللـذات عن يسر ... في صحـة واقتـدار منـه مـا عمـرا

وله أيضاً:

ففـوزوا بنسـك في الحيـاة وثبتـوا ... لأقدامكـم في الأرض قبـل انهيارهـا

ويأمر بالارتياح إلى النسك وأصحابه، فيقول:

إلى النسـك ارتـح وأصحابـه ... إذا فاتـك القـوم لم يرتـح

ويرى أنَّ النسك والمرء في شبابه، أما بعد الأربعين فالتنسك ضرورة، يقول من الطويل:

تَنَسَّكتَ بَعدَ الأَربَعينَ ضَرورَةً ... وَلَم يَبقَ إِلّا أن تَقومَ الصَوارِخُ

فَكَيفَ تُرَجّي أن تُثابَ وَإِنما ... يَرى الناسُ فَضلَ النُسكِ وَالمَرءُ شارِخُ.[1]

مع التفسير:

لنقف عند الآيات التي توفّرت على مفردة النسك والتي جاءت كما ذكرنا سبع مرّات في ستَّ آيات قرآنيّة مباركة، وحسب الترتيب القرآني للسور إعراباً ولغةً وقراءةً وبياناً؛.. بدءًا بالآيتين:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ﴾. سورة البقرة: ١٢٨ـ ١٢٩.

بدءًا نقول: يشكّل الدعاء في المشروع الإبراهيمي الركيزة الأعظم في إظهار جوهر العلاقة بين العبد وربّه، وفي انشداد الإنسان لمبدعه؛ وفي بيان الصلة الوثيقة بين الخالق والمخلوق؛ وفي انكشاف قوة الأول وضعف الثاني، غناء الأول وفقر الثاني، اكتفاء الأول وحاجة الثاني و... والدعاء شكّل المنهج القويم الثابت والنافع والمثمر لدعوة الأنبياء وحركتهم وبالذات لإبراهيم عليه السلام؛ لهداية الناس إلى خالقهم، وإبعادهم عن

١. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وجماعته: ٩١٩؛ القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً، سعدي أبوالجيب: ٣٥٢، نَسَكَ؛ لسان العرب لابن منظور ١٠: ٤٩٨-٤٩٠؛ النهاية لابن الأثير ٥: ٤٥؛ أنيس الفقهاء: ١٤٤؛ تاج العروس، الزبيدي نَسَكَ ١٣: ٦٥٨؛ مفردات الراغب: نَسَكَ؛ معجم ألفاظ الفقه الجعفري، الدكتور أحمد فتح الله: ٤٢٥: النسك؛ ديوان أبي العلاء المعري: الشارخ: الشباب؛ رأي في أبي العلاء؛ الرجل الذي وجد نفسه، أمين الخولي: ٣٤.

سبل الضلال وتيه الانحراف عن الصراط المستقيم... كما أنَّ أدعية إبراهيم تحمل أهداف دعوته، والمنهج الذي سلكه في مشروعه التوحيدي المبارك، وبالذات في فريضة الحجّ وكذا العمرة بناءً للبيت وتعريفاً بمناسك زيارته والتي لم تخلو من الاستعانة بالله تعالى على تحقيقها... لقد كان نبيُّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام دائمَ الدعاء والتضرع لربّه، وكان لابنه نبيّ الله إسماعيل عليه السلام حصة مهمّة، يشارك فيها أباه في بعض ذلك، فكانا معاً في دعائهما وفي ابتهالهما وتضرعهما، كما في الآيتين المذكورتين، وقد جاءتا ضمن مقطع قرآني متوفّر على بعض الأدعية الإبراهيميّة، بعد الذكر المبارك للبيت الحرام: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

ولعلَّ الجمع في الكلام بينهما؛ لما تحكياه من أهميّة للمناسك، ودور كلّ من إبراهيم عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله في إراءتها للناس (إبراهيم عليه السلام في الآية الأولى ورسول الله صلى الله عليه وآله في الثانية، كما يأتينا).

ولأنَّ ما توفّرتا عليه من الدعاء مع انضمامه إلى باقي الأدعية في آيات أُخر، تشكّل بمجموعها ذكراً جميلاً للحركة التوحيدية لنبيّ الله إبراهيم عليه السلام، ولاستعانته الدائمة بالله تعالى على مقارعة الشرك واجتثاث معالمه وآثاره، تمهيداً لبناء المشروع التوحيدي الإيماني والعملي في الناس... فضلاً عن أنها قد واكبت سيرته العطرة، وراحت تحكي لنا مناقبه وجهوده التي لا تنفك عن قدرة السماء وإرادتها في أربع آيات وهي:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَداً آمِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

والمعطوف عليه هو ذلك الدعاء المشترك بين إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وفيها إسماعيل معطوف على إبراهيم، لاشتراكهما في الدعاء، بعد أن كانا مشتركين في رفع القواعد؛ فإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة أو أنهما رفعا القواعد معاً... وكأنهما يقولان: لقد أمرتنا يا ربّ أن نرفع القواعد من البيت، وها نحن قد فعلنا ما أمرتنا، وأنجزنا هذه الخطوة من مشروع السماء المبارك، فتقبل منا! ولم يكتفيا بهذا، بل راحا سويةً يدعوان الله تعالى؛ يطلبان أربعة أمور تضمنتها الآية الأولى:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. سورة البقرة: ١٢٨.

كان المطلب الثالث هو: ﴿وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

هذه الآية تُعدُّ واحدةً من آيات في مقطع قرآني مبارك يتوفّر على أدعيةٍ لنبيّين؛ الأب إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، تسبقها أدعية مباركة وتلحقها، ولا غرابة في هذا فالدعاء هنا يمثل طلبها الخامس فقد تجسّد عظيماً واضحاً حين لم يتوقفا بدعائهما ذلك ولم يكتفيا به، بل عقّباه بالدعاء لهذه الأمّة المسلمة المنبثقة من ذريتهما بالهداية وعلى يدي رسول منها لا من غيرها؛ ليكون خاتم الحركة التوحيدية لإبراهيم ولجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام من قبل إبراهيم عليه السلام ومن بعده، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقد تتضح المناسبة بين هاتين الآيتين، حين نعرف أنَّ إبراهيم وإسماعيل تعلما مناسك الحجّ مباشرةً، فيما تعلمتها ذريتُهما من بعدهما بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله. ولعلَّ هذه خلاصة ما ذكره البقاعي في تفسيره:

... ولما كان المسلم مضطراً إلى العلم قال: ﴿وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ وفي ذلك ظهور لشرف عمل الحجّ حيث كان مُتلقي عن الله بلا واسطة؛ لكونه علماً على آتي يوم الدين

حيث لا واسطة هناك بين الربّ والعباد...

ثمَّ يقول: ولما طلب ما هو له في منصب النبوّة من تعليم الله له المناسك بغير واسطة، طلب لذريته مثل ذلك بواسطة من جرت العادة به لأمثالهم، فقال: ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ**﴾. أي الأمّة المسلمة التي من ذريتي وذرية ابني إسماعيل ﴿**رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾ ليكون أرفق بهم وأشفق عليهم، ويكونوا هم أجدر باتباعه والترامي في نصره، وذلك الرسول هو محمدﷺ، فإنه لم يبعث من ذريتهما بالكتاب غيره، فهو دعوة إبراهيمعليه السلام أبي العرب وأكرم ذريته...

فهذه أدعية ثلاثة في المقطع المذكور، اشترك فيها كلٌّ من إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام وهي:

﴿...**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**﴾.

﴿**رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**...﴾.

﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**...﴾.

وهمايكرران نداءهما الخالي من أداة البعد أي حرف النداء (يا) واكتفا بقولهما ﴿**رَبَّنَا**﴾ وعن فائدة تكرير النداء في هذه الآيات، **يقول ابن عاشور**: إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أنَّ كلَّ دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلّا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإنَّ الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل، والثانية لطلب الاهتداء، فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي:

﴿**رَبَّنَا وَ ٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً**...﴾. سورة البقرة: ١٢٩ .

يقول الرازي: اعلم أنَّ هذا هو النوع الرابع من الأمور التي حكاها الله تعالى عن إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، وهو أنهما عند بناء البيت ذكرا ثلاثة من الدعاء... [١]

١. تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (ت ٨٨٥ هـ): الآيتان؛ التحرير والتنوير لابن عاشور؛ مفاتيح الغيب للرازي، الآيات .

ولعلَّ بين هذه الأدعية أيضاً ترابطاً وفوائدَ... منها أنَّ المناسك التي أردا من الله تعالى أن يُريَها لهما تتعلّق بالبيت المبارك الذي قاما برفع قواعده فتشيده، فكانا شريكين في بناء البيت وفي الدعاء... ثمَّ في تطهيره كما في الآيتين: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ**﴾. سورة الحج: ٢٦ . ﴿**وَ إِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَ أَمْناً وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ**﴾. سورة البقرة: ١٢٥ .

من أن تلوثه أيدي الشرك وعبادة الأوثان؛ تمهيداً لأداء هذه المناسك، وإعداداً لمشاعر الحجّ والعمرة، فهو ميدانها الأصيل لكلّ مَن يريد أن يكون في دائرة أولئك الذين لبّوا نداء إبراهيم عليه السلام المتمثّل في سورة الحج : ٢٧ . ﴿**وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾.

ليكون من قاصدي البيت حاجًّا أومعتمراً فيطوف به، ويسعى بين الصفا والمروة... وبالتالي يلج في دائرة الطائفين والقائمين والعاكفين والركع السجود...

ثمَّ إنهما بعد أن دعوا الله سبحانه: ﴿**رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ...**﴾. دَعَوا الله عزَّوجلَّ أيضاً: ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ...**﴾، وسيأتي الكلام عنها.

هذا، و لابدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه الآية المباركة في سورة البقرة جاءت ضمن مقطع قرآني كريم (الآيات: ١٢٤ـ ١٢٩)، بدءًا بتأسيس الإمامة الإبراهيميّة، بعد أن اجتاز نبيّ الله إبراهيم عليه السلام جميع الابتلاءآت، وحقّق فوزاً عظيماً يُرضي السماء، فما أعظمه من برهان على منزلته عند ربّه، ورضا الله عزَّ وجلَّ عنه! حتى منحه هذا الوسام الكبير، والفضل الجليل، ألا وهو الإمامة كما جاءت بذلك هذه الآية المباركة: ١٢٤ ﴿**وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ**﴾!

إلّا أنَّ إبراهيم عليه السلام ولمعرفته بجلالة هذه الدرجة التي منحتها له السماء، ولعظمها في عينه، تمنّى أن لا تبقى عليه فقط، وأن لا تقف عنده، وأن لا تختصّ به دون غيره من ذريته، بل أن يحظى أولاده وأحفاده بهذا العطاء الطيب، وهم يشكّلون امتداده الطبيعي، فلا يبتعدون عن دائرتها، بل أن يكونوا جزءًا فاعلاً فيها؛ ولهم نصيب منها، فرفع يديه راجياً متمنياً متوسلاً: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

فاستجابت السماء ذلك منه، لكن ليس على إطلاق حتى جزء الذرية هذا، أو عموم هذه البعضيّة من الذرية، دون أن تقيّدها بالصالحين وتخصصها بالمتقين من نسله عليه السلام، الذين هم الأعظم اتباعاً لشرعه، والأكثر اقتفاءً لآثاره، والأصدق التزاماً بعهد الإمامة، وتُبعد الظالمين عنها، فلا ينالون شيئاً من العهد المبارك هذا؛ لأنّهم ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين، فلا مجال لهم ولا مكان في عهد الإمامة الإبراهيميّة، طرداً للظلم بكلّ أشكاله وإبعاداً لجميع أتباعه ومريديه...

وبمثل هذا ما قرره سيد قطب بقوله أنَّ: الظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي... والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كلّ معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة... وكلّ معنى من معاني الإمامة والقيادة. فالعدل بكلّ معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظلم أي لون من الظلم فقد جرّد نفسه من حقّ الإمامة، وأسقط حقَّه فيها بكلّ معنى من معانيها...[1]

إنَّ أدب الدعاء لإبراهيم عليه السلام بعد آية الإمامة وبيانها وإجابتها، بل ورفضها الصريح المتمثّل بقولها: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾. سورة البقرة: ١٢٤ يتجلّى أيضاً بعد ثلاث آيات أي في الآية: ١٢٨ ﴿... وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ ...﴾، وحدّد في دعائه مع ابنه إسماعيل عليهما السلام أمنيتهما صريحةً أن تكون ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾، ولكن لبعض ذريتهما!

١. في ظلال القرآن: الآية.

وهـذا هـو أدبه الذي صـار منهجه حتـى في دعائـه الآخـر: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾؛ سـورة إبراهيم: ٤٠ .

ولعلّهـما أيضـاً كانـا عليهما السلام ملتفتـين إلى أنَّ الدعـاء لجميـع ذريتهـما وللأُمّة المنبثقـة منها، ليـس فيـه رعاية لـلأدب مـع الله عزَّ وجـلّ؛ لأنها أُمّة سـتكون كثيرة وواسـعة، وبحسـب سـنته تعـالى في خلقـه، منهـا أنـاس محسـنون وفي قبالهـم ظالمـون، ومنهـا أنـاس مهتـدون وآخرون فاسـقون: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، سـورة الصافـات: ١١٣ . ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، سـورة الحديد: ٢٦ .

فلـم يخالفـا سـنة الله تعـالى في خلقـه، فـكان سـؤالهما لا لهـا جميعـاً، بـل للبعـض منها بالهدايـة للإسـلام ولمعرفـة المناسـك التـي نسـباها لأنفسـهما ﴿مَنَاسِكَنَا﴾،

وقـد عرفاهـا واعتـزّا بهـا وحَرَصـا عليهـا، وإلّا فهـي مناسـكه تعـالى لعبـاده، أحـبّ وارتـضى أن يُعبـد من خلالها..! وأنَّها تُشـكّل خـير منظومة عبادية ترقى بـالأرواح وتطهر النفـوس، وتجعلهـا أعظـم انشـداداً لخالقهـا، والتزامـاً بشرائعـه، وبالتـالي وجـدا فيها كلَّ خـير في الدنيـا والآخـرة، فتمنّاهـا إبراهيـم لأُمّته كـما تمنّى لهـا الإمامة، وهذه سـيرته عليه السلام؛ مـا إن تمـنّ عليه السـماءُ بعطـاءٍ وخـير وفضـل إلّا وأحبّه ورجـاه لبعض ذريتـه، وصارت سـنّةً مُتّبعـةً في عقبـه، ولا غرابـة في هـذا وهـو صاحـب الوصية الكـبرى لهم، فـما أن نال نعمـة الإسـلام حتـى اتجهت أنظـاره إلى ذريتـه يُوصيهم بهـا: ﴿إِذْ قَـالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْـلِمْ قَالَ أَسْـلَمْتُ لِـرَبِّ ٱلْعَالَمِـينَ * وَوَصَّىٰ بِهَـآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيـهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَـنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُـمُ ٱلدِّيـنَ فَـلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْـلِمُونَ﴾. سـورة البقـرة: ١٣٢ - ١٣٣ .

نلاحـظ هـذا الأدب الإبراهيمـي في كلام ابن عاشـور حـين يقول:.. وإنما سـألا ذلك لبعـض الذريـة جمعـاً بين الحرص عـلى حصول الفضيلـة للذريـة وبـين الأدب في الدعاء؛ لأنَّ نبـوءة إبراهيـم تقتـضي علمـه بأنـه سـتكون ذريته أمـماً كثـيرةً، وأنَّ حكمـة الله في هذا

العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار، فدعا الله بالممكن عادةً، وهذا من أدب الدعاء، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾. سورة البقرة: ١٢٤.

وظلّت هذه الفقرة من الآية موضع استدلالهم في الآية التالية لها، والتي فيها: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

وهذا يعني أنَّ آية الإمامة لإبراهيم عليه السلام قد نزلت قبل دعائهما هذا الذي فيه تخصيص لبعض ذريتهما أن يجعل الله سبحانه منها ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً﴾. كما أنَّ بعض مفردات آية الإمامة هذه كالابتلاء والكلمات والإمامة استفاد منها بعضهم في مسألة مفردة المناسك... وهذا كلّه سنلاحظه في الآية الأولى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، سورة البقرة: ١٢٨؛ التي نقف عندها إعراباً وقراءةً ولغةً وتفسيراً:

الإعراب:

﴿رَبَّنا﴾، منادى مضاف محذوف منه حرف النداء، ولا بدَّ من تقدير قول محذوف؛ أي يقولان: ربَّنا، ويكثر حذف الحال إذا كان قولاً أغنى عنه المقول.

﴿وَاجْعَلْنا﴾: عطف على ما تقدّم.

﴿مُسْلِمَيْنِ﴾: مفعول به ثان.

يقول السمين الحلبي: ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾، مفعولٌ ثان للجَعْل؛ لأنَّه بمعنى التصيير، والمفعولُ الأولُ هو «نا».

﴿لَكَ﴾: الجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت مسلمين.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا﴾، الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف دلّ عليه المذكور؛ أي واجعل من ذريتنا.

﴿أُمَّةً﴾ مفعول به أول للفعل المحذوف، ومن ذريتنا هو المفعول الثاني.

﴿مُسْلِمَةً﴾: نعت.

﴿لَكَ﴾: نعت ثان لأُمّة.

﴿وَأَرِنَا﴾ الواو عاطفة، وأر فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول.

﴿مَناسِكَنا﴾: مفعول به ثان.

﴿وَتُبْ عَلَيْنا﴾: عطف أيضاً.

﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ واسمها.

﴿أَنْتَ﴾: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ.

﴿التَّوَّابُ﴾: خبر أول.

﴿الرَّحِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية خبر إنَّ، ولك أن تعرب الضمير ضمير فصل لا محل له من الإعراب. والتواب الرحيم: خبران لأنَّ، ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ...﴾، يفيد الحصر أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، تمنّيا أن تكون هناك أُمّة ترث ما هما عليه من الإسلام والمناسك...

القراءة:

أبو حيان: ... وقراءة عبد الله: وأرهم مناسكهم وتب عليهم. واحتمال أن يكون: وأرنا مناسكنا على حذف مضاف، أي وأر ذريتنا مناسكنا... ثمَّ يقول:.. دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمّة مسلمة، وبأن يريهما مناسكهما، وبأن يتوب عليهما...

وعن ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ في دعائهما عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: مفعول به ثان لـ «اجعلنا». يقول السمين الحلبي: قوله ﴿لَّكَ﴾ فيه وجهان، أحدُهما: أن يتعلَّق بمُسْلِمَيْن،

لأنه بمعنى نُخْلِصُ لك أوجهَنَا نحو: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾، فيكونَ المفعولُ محذوفاً لفَهْم المعنى. والثاني: أنه نعتٌ لِمُسْلِمَيْن، أي: مُسْلِمَيْن مستقرَّيْن لك أي: مستسلمَيْن، والأولُ أقوى معنًى.

أما القراءة فقد قرىء ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾ على الجمع، كأنهما أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع لأنها منه. هذا ما ذكره الزمخشري في تفسيره للآية.

الشيخ الطوسي: روي في الشواذ عن عوف بن الاعرابي أنه قرأ (مسلمين) على الجمع.

قرأ ابن عباس «مسلِمين»، بصيغةِ الجمع، وفي ذلك والكلام للسمين الحلبي تأويلان أحدُهما: أنهما أجْرَيَا التثنية مُجْرَى الجمع، وبه استدلَّ مَنْ يَجْعَلُ التثنيةَ جمعاً. والثاني: أنهما أرادا أنفسهما وأهلَهما كهاجر.

يقول الطبري: وهذا أيضاً خبر من الله تعالى ذكره عن إبراهيم وإسماعيل أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك، لا نُشْرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك... معنى الإسلام الخضوع لله بالطاعة.

الشيخ الطوسي: ... وإنما سألا الله تعالى أن يجعلهما مسلمين بمعنى: أن يفعل لهما من الألطاف ما يتمسكان معه بالإسلام في مستقبل عمرهما؛ لأنَّ الإسلام كان حاصلاً في وقت دعائهما، ويجري ذلك مجرى أحدنا، إذا أدب ولده وعرّضه لذلك حتى صار أديباً، جاز أن يقال: جعل ولده أديباً. وعكس ذلك إذا عرضه للبلاء والفساد، وجاز أن يقال: جعله ظالماً محتالاً فاسداً. ويجوز أن يكونا قالا ذلك تعبداً كما قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، سورة الأنبياء: ١١٢.

ويقول البيضاوي: مخلصين لك، من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾. وعن إضافة الذرية إليهما، يقول محمدرشيدرضا: أضافا الذرية إلى ضمير الاثنين، للدلالة على أنَّ المراد الذريّة التي تنسب إليهما معاً، وهي ما يكون من ولد إسماعيل، اللفظ ظاهر في هذا المعنى،...

مِن التبعيضيّة:

وهي التي يمكن حذفها ووضع (بعض) مكانها، وهنا وإن جوّز بعضهم أنها للتبيين، لكنَّ القول إنَّها للتبعيض يبقى القول الأرجح. وقد خصَّ إبراهيمعليه السلام بعضهم ولم يُعمّم؛ لأنه تعالى سبق وأن أعلمه أنَّ في ذريته الظالمين؛ الظالم لنفسه والظالم لغيره في قوله: في آية الإمامة: ١٢٤ سورة البقرة، ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّالِمِينَ ...﴾.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ...﴾، يفيد الحصر أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، تمنّيا أن تكون هناك أمّة ترث ما هما عليه من الإسلام والمناسك...

أبو حيان:.. وقراءة عبد الله: وأرهم مناسكهم وتب عليهم. واحتمال أن يكون: وأرنا مناسكنا على حذف مضاف، أي وأر ذريتنا مناسكنا... ثمَّ يقول:.. دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمّة مسلمة، وبأن يريهما مناسكهما، وبأن يتوب عليهما... أن يبعث في هذه الأُمّة، والتي سيكون وجودها بعد قرون وأجيال في مكة المكرمة وما حولها، مَن يواصل مسيرتها تلك، ويرفع عنها ما قد يُصيبها من تحريف واعتداء وتضييع، ويُعلمها دينها وشرائعه، والتي منها المناسك العبادية لبيته العتيق الذي هم بقربه وحوله وهو بينهم؛ ليحجّوه على علم ومعرفة، فكان رسول اللهﷺ الذي لم يُبعث سواه في مكة المكرمة، استجابةً لدعائهما.

فهذا الشيخ الطبري في تفسيره يقول: فإنهما خَصَّا بذلك بعض الذرية؛ لأنَّ الله تعالى ذكرُه قد كان أعلم إبراهيم خليلهعليه السلام قبل مسألته هذه أنَّ من ذرّيته من لاينال عهده لظلمه وفجوره...ويقصد الطبري ما جاء في الآية: ١٢٤ من سورة البقرة.

ويواصل قائلاً: فخّصا بالدعوة بعض ذرّيتهما. وقد قيل: إنهما عنيا بذلك العرب، **فعن السدي**: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾ يعنيان العرب.

ويردُّ الطبري هذا بقوله: وهذا قول يدلّ ظاهر الكتاب على خلافه؛ لأنَّ ظاهره يدلّ على أنهما دعوا الله أن يجعل من ذريتهما أهل طاعته وولايته والمستجيبين لأمره، وقد كان في ولد إبراهيم العرب وغير العرب، والمستجيب لأمر الله والخاضع له بالطاعة من الفريقين، فلا وجه لقول من قال: عنى إبراهيم بدعائه ذلك فريقاً من ولده بأعيانهم دون غيرهم إلّا التحكم الذي لا يعجز عنه أحد. وأما الأمّة في هذا الموضع، فإنه يعني بها الجماعة من الناس، من قول الله: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ**﴾، سورة الأعراف: ١٥٦.

الشيخ الطوسي: وإنما خصّا بالدعوة بعض الذرية في قوله: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنَا**﴾ لأنَّ (من) للتبعيض من حيث أنَّ الله تعالى: كان أعلمه أنَّ في ذريتهما من لا ينال العهد؛ لكونه ظالماً.

وقال السدي: إنما عنيا بذلك العرب. والأول هو الصحيح. وهو قول أكثر المفسرين.

وحسب ما ذكر القرطبي: أنه لم يدع نَبيٌّ إلّا لنفسه ولأمّته إلّا إبراهيم، فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمّته ولهذه الأمّة... و﴿**مِن**﴾ في قوله: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِنَا**﴾، للتبعيض؛ لأنَّ الله تعالى قد كان أعلمه أنَّ منهم ظالمين. والمسلم هو الذي استسلم لأمر الله وخضع له، وهو في الدين القابل لأوامر الله سرًّا وجهراً...

وللرازي في تفسير الآية: واجعل من أولادنا، و(من) للتبعيض وخصّ بعضهم؛ لأنه تعالى أعلمهما أنَّ في ذريتهما الظالم بقوله تعالى: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾، سورة البقرة: ١٢٤.

وله أيضاً... أنه تعالى لما أعلم إبراهيم عليه السلام أنّ في ذريته من يكون ظالماً عاصياً، لا

جـرم سـأل هاهنا أن يجعـل بعض ذرّيتـه أمّةً مسـلمةً.

جـاء هذا النفي والـردّ، حين حكى تعالى عنـه والكلام للرازي أيضاً أنـه طلب الإمامة لأولاده... فـدلَّ ذلـك عـلى أنَّ منصب الإمامـة والرياسـة في الدين لا يصـل إلى الظالمين، فهـؤلاء متـى أرادوا وجدان هذا المنصب وجـب عليهم ترك اللجـاج والتعصب للباطل.

البيضـاوي:.. أي واجعـل بعـض ذريتنـا، وإنـما خصّـا الذريـة بالدعـاء؛ لأنّهـم أحقُّ بالشـفقة، ولأنّهـم إذا صلحـوا صلـح بهم الأتبـاع، وخصّا بعضهـم لما أعلـما أنَّ في ذريتهما ظلمـة، وعلـما أنَّ الحكمـة الإلهيـة لا تقتـضي الاتفاق على الإخـلاص والإقبـال الكلي على الله تعـالى، فإنّـه ممـا يشـوش المعـاش، ولذلك قيـل: لـولا الحمقى لخربـت الدنيا.

وقيـل: أراد بالأُمّـة أمّة محمـد صلى الله عليه وآله، ويجوز أن تكون (مـن) للتبيين كقوله تعـالى: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ**﴾، سـورة المائدة: ٩.

قـدم عـلى المبـين وفصل به بـين العاطـف والمعطوف كـما في قوله تعـالى: ﴿**خَلَقَ سَـبْعَ سَـمَاوَاتٍ وَ مِـنَ ٱلأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾.

وقـد ذكر صاحب تفسـير البرهـان رواية عـن أبي عمرو الزبيري، عـن أبي عبدالله عليه السلام، قـال: قلـت لـه: أخبرني عن أُمّة محمـد عليه الصلاة والسـلام، مَن هم؟ قـال: أمّة محمد بنو هاشـم خاصـة. قلـتُ: فما الحجّـة في أمّة محمـد أنهم أهل بيتـه الذين ذكـرت دون غيرهم؟ قـال: قـول الله: ﴿**وَإِذْ يَرْفَـعُ إِبْرَاهِيـمُ ٱلْقَوَاعِـدَ مِـنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْـمَاعِيلُ رَبَّنَـا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّـكَ أَنـتَ ٱلسَّـمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَـا وَٱجْعَلْنَا مُسْـلِمَيْنِ لَكَ وَمِـن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْـلِمَةً لَّـكَ وَأَرِنَا مَنَاسِـكَنَا وَتُـبْ عَلَيْنَآ إِنَّـكَ أَنتَ ٱلتَّـوَّابُ ٱلرَّحِيمُ**﴾، فلما أجـاب الله إبراهيم وإسـماعيل، وجعـل مـن ذريتهـم أمّةً مسـلمةً، و بعـث فيها رسـولاً منها ـ يعنـي من تلك الأُمّـة يتلو عليهـم آياته و يزكيهـم ويعلّمهم الكتـاب والحكمـة، ردف إبراهيم عليه السلام دعوته الأولى بدعوتـه الأخـرى، فسـأل لهـم تطهـيراً مـن الـشرك ومـن عبـادة الأصنـام؛ ليصحّ أمـره فيهـم، ولا يتبعوا غيرهـم، فقـال: ﴿**وَٱجْنُبْنِي وَبَـنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلأَصْنَـامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ**

﴿أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة إبراهيم: ٣٥ - ٣٦.

ففي هذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأُمّة المسلمة التي بَعث فيها محمداً ﷺ إلّا من ذرية إبراهيم عليه السلام، لقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلأَصْنَامَ﴾، سورة إبراهيم: ٣٥.[1]

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾

فإنَّ هذه الإراءة؛ أي إراءة إبراهيم عليه السلام مناسكه، الواردة في دعائه عليه السلام، تُعدُّ واحدةً من خصائصه العديدة التي تفضل الله تعالى عليه بها؛ واقترنت بأذانه بالحجّ للبيت الذي رفع قواعده وطهره، بعد اصطفائه بالنبوّة والرسالة...

يذكر أبو حيان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا ...﴾ سورة البقرة: ١٣٠. أي جعلناه صافياً من الأدناس، واصطفاؤه بالرسالة والخلّة والكلمات التي وفى ووصى بها، وبناء البيت، والإمامة، واتخاذ مقامه مصلّى، وتطهير البيت، والنجاة من نار نمرود، والنظر في النجوم، وأذانه بالحجّ، وإراءته مناسكه، إلى غير ذلك مما ذكر الله في كتابه من خصائصه ووجوه اصطفائه...[2]

وصارت من أهمّ وظائف نبوّته و رسالته للناس بعد بنائه للكعبة المشرّفة وأذانه المبارك، أن يُريهم مناسكهم في كيفية حجِّ هذا البيت المبارك، وفي زيارته، وأداء ما عليهم من واجبات إزاءه، مما يدلّ على عظمة هذا البيت وفضله وأهمية معالمه في المنظومة الإيمانية والعبادية والاجتماعية والثقافية التي تمنّاها كلٌّ من إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام للأمّة المسلمة، وقد تجسّدت تلك المنظومة وهذه الأمنية في دعائهما: ﴿... وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ...﴾. في الكافي عن أحدهما عليهما السلام (ولعلّه

١. البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧ هـ): الآية.
٢. البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ): الآية.

الإمـام الباقـر أو الإمـام الصـادق(عليهما السلام) قـال: «إنَّ الله تعالى أمـر إبراهيم ببنـاء الكعبة، وأن يرفـع قواعدهـا، ويُـري الناس مناسـكهم، فبنـى إبراهيم وإسـماعيل(عليهما السلام) البيـت...».

فقـراءة ﴿**وَأَرِنَـا**﴾ لهـم كلام طويل فيهـا، وفي المراد منهـا أو في أنواع الرؤيـة أهي القلبية أو البصريـة أو همـا معـاً، أو هـي بمعنـى: علّمنـا..، نكتفي بـما ذكره بعضهم مـع شيء من التـصرف، وقبـل التعرض لهذا، نشـير إلى أنَّ الرازي في تفسـيره: ذكر أنَّ في قـراءة عبدالله: (وأرهـم مناسـكهم وتب عليهم)، وعـن غيره: أنَّ ابن مسـعود قرأ: (وَأَرِهِمْ مَنَاسِـكَهُمْ)، فالضمـير رُدَّ إلى الأمَّـةِ، أو بإعـادة الضمـير إلى الذريـة، باعتبـار أنَّ هـذه وتلـك ذكرت في الآيـة: ﴿**وَمِـن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْـلِمَةً لَّكَ**﴾.

﴿**وَأَرِنَـا**﴾ هـل هـي من رؤية العـين، أو مـن رؤية القلـب، أو هي رؤيـة القلب والبصر معاً؟

فهـذا مـا أشـار إليـه الطـبري في تأويله للآيـة المذكـورة، ضمن بيانـه اختـلاف قراءتها مـن قبـل القـرّاء، حيـث إنـه رتّبهـم عـلى ثـلاث طوائـف مـن القـرّاء، وذكـر تأويـل كلّ منهـم ﴿**مَناسِـكَنا**﴾ وبيانهـا عـلى ضـوء قراءتهـم، ونظـراً لفائدتهـا ندوّنهـا كـما أوردهـا، ولكـن باختصار سـندها، وكانـت تحت عنوان: القول فـي تأويـل قوله تعالـى: ﴿**وَأَرِنَا مَناسِـكَنا**﴾، فقـال: اختلفت القرّاء فـي قـراءة ذلك: فقـرأه بعضهم: ﴿**وَأَرِنَا مَناسِـكَنا**﴾ بـمعنى رؤيـة العـين، أي أظهرها لأعيننا حتـى نراها. وذلـك قراءة عامة أهل الـحجاز والكوفة، وكان بعض من يوجّه تأويـل ذلك إلـى هذا التأويـل يسكن الراء من «أرنا»، غـير أنـه يُشِـمُّها كـسرة. ثـمَّ يقـول: واختلـف قائـل هـذه الـمقالة وقـرّاء هـذه القـراءة فـي تأويـل قولـه: ﴿**مَناسِـكَنا**﴾، فقـال بعضهم: هي مناسـك الـحجّ ومعالـمه. ذكر مـن قـال ذلـك:.. عن قتـادة قولـه: ﴿**وأَرِنـا مَناسِـكَنا**﴾ فأراهمـا الله مناسـكهما؛ الطواف بـالبـيت، والسعي بـين الصفـا والـمروة، والإفـاضة من عرفـات، والإفـاضة من جمع، ورمي الـجمار، حتـى أكمـل الله الديـن أو دينه. وأيضـاً... عن قتادة فـي قولـه: ﴿**وَأَرِنَا**

مَناسِكَنا﴾ قال: أرنا نُسكنا وحَجَّنا...

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة: المناسك المذابح. فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك: وأرنا كيف نَنْسُكُ لك يا ربنا نسائكنا فنذبحها لك.

ذكر من قال ذلك:.. عن ابن جريج، عن عطاء: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنا﴾ قال: ذَبْحَنا. وأيضاً... عن ابن جريج، عن عطاء، قال: مذابحنا. و... عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله. و... عن عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنا﴾ قال: أرنا مذابحنا.

وقال آخرون: (وأرْنا مَناسِكَنا)، بتسكين الراء. وزعموا أنَّ معنى ذلك: وعلِّمنا ودُلَّنا عليها، لا أنَّ معناها أرناها بالأبصار. وزعموا أنَّ ذلك نظير قول حُطائط بن يَعْفر أخي الأسود بن يعفر:

أريني جَوَاداً ماتَ هُزْلاً لأَنني ... أرَى ما تَرَينَ أوْ بَخِيلاً مُخَلّدا

يعني بقوله أريني: دليني عليه وعرّفيني مكانه، ولم يَعْن به رؤية العين.

وهذه قراءة رُويت عن بعض المتقدّمين. ذكر من قال ذلك:.. عن ابن جريج، قال: قال عطاء: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنا﴾: أخرجها لنا، علمناها.

وأيضاً عن ابن جريج، قال ابن المسيب: قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، قال: فعلت أي ربّ فأرنا مناسكنا، أبرزها لنا، علمناها، فبعث الله جبريل فحجّ به.

وهنا يعقّب الطبري قائلاً: والقول واحد، فمَن كسر الراء جعل علامة الجزم سقوط الياء التي في قول القائل أرنيه، أرنه، وأقرّ الراء مكسورة كما كانت قبل الجزم.

ومَن سكن الراء من «أرْنا» توهم أنَّ إعراب الحرف في الراء، فسكنها في الجزم كما فعلوا ذلك في لم يكن ولم يَكُ. وسواء كان ذلك من رؤية العين، أو من رؤية القلب. ولا معنى لفَرْق من فَرَق بين رؤية العين في ذلك ورؤية القلب.

أما الطبرسي، فقد ذكر أنَّ ابن كثير قرأ أرنا بإسكان الراء كلّ القرآن، ووافقه ابن عامر وأبو بكر عن عاصم في السجدة: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ**﴾، سورة فصلت: ٢٩.

وقرأ أبو عمرو بالاختلاس لكسرة الراء من غير إشباع كلّ القرآن والباقون بالكسر.

الحجّة: الاختيار كسرة الراء؛ لأنها كسرة الهمزة قد حولت إلى الراء، لأنه أصله أرإنا فنقلت الكسرة إلى الراء وسقطت الهمزة، ولأنَّ في إسكان الراء بعد سقوط الهمزة إجحافاً بالكلمة وإبطالاً للدلالة على الهمزة، ومن سكنه فعلى وجه التشبيه بما يسكن في مثل كبد وفخذ، ونحو قول الشاعر:

لو عَصرَ مِنْهُ البان وَالمِسْك انْعَصَرْ

وقال الآخر:

قَالَتْ سُلِيمىَ اشْتَرْ لَنَا سَوِيْقَا واشْتَرْ وَعَجّلْ خَادِماً لَبيقاً

وأما الاختلاس فلطلب الخفة وبقاء الدلالة على حذف الهمزة.

القرطبي: ﴿**أَرِنَا**﴾ من رؤية البصر، فتتعدّى إلى مفعولين.

وقيل: من رؤية القلب، ويلزم قائله أن يتعدّى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل.

قال ابن عطية: وينفصل بأنه يوجد معدّى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين كغير المعدّى، قال حُطائط ابن يعفُر أخو الأسود بن يَعْفُر:

أريني جواداً مات هزْلاً لأنني أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مُخَلَّداً

البيضاوي: وقرأ ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو ويعقوب ﴿**أَرِنَا**﴾ قياساً على فخذ في فخذ، وفيه إجحاف؛ لأنَّ الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها. وقرأ الدوري عن أبي عمرو بالاختلاس..

و ﴿أَرِنَا﴾ من رأى بمعنى أبصر، أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين.

علمنا سنن حجّنا. علمنا وعرفنا. ومن قبله قاله الزمخشري: ﴿وَأَرِنَا﴾ منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرّف. ولذلك لم يتجاوز مفعولين، أي وبصرنا متعبداتنا في الحجّ، أو وعرفناها. وقيل مذابحنا. وعن السمين الحلبي أنَّ الزمخشري أجاز أن تكون منقولةً من (رأى) بمعنى عَرَفَ فتتعدَّى أيضاً لاثنين...

... وأجاز قومٌ فيما حكاه ابن عطية أنّها هنا قلبيَّةٌ، والقلبيةُ قبلَ النقل تتعدَّى لاثنين، كقوله:

وإنَّا لَقومٌ ما نرى القَتْلَ سُبَّةً إذا ما رَأتْه عامرٌ وسَلُولُ

الطوسي: وقوله: ﴿وَأَرِنَا﴾ يحتمل أمرين: أحدهما - أن يكون من رؤية البصر. والآخر- أن يكون من رؤية القلب بمعنى اعلمنا... وقال بعضهم: هي هنا بَصَرِيَّةٌ قلبيةٌ معاً؛ لأنّ الحَجَّ لا يَتِمُّ إلّا بأمور منها ما هو معلومٌ ومنها ما هو مُبْصَر، ويلزَمُه على هذا الجمعُ بين الحقيقةِ والمجاز أو استعمالُ المشتركِ في معنييه معاً.

وكذا **أبو حيان** في بحره بعد ذكره لما قاله بعض الناس: المراد هنا بالرؤية رؤية البصر والقلب معاً؛ لأنَّ الحجَّ لا يتمّ إلّا بأمور بعضها يعلم ولا يرى، وبعضها لا يتمّ الغرض منه إلّا بالرؤية، فوجب حمل اللفظ على الأمرين جميعاً. قال: وهذا ضعيف؛ لأنَّ فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز، أو حمل اللفظ المشترك على أكثر من موضوع واحد في حالة واحدة، وهو لا يجوز عندنا.[1]

السمين الحلبي: قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ الظاهرُ أن الرؤيةَ هنا بَصَرِيَّة، فرأى في الأصل يتعدَّى لواحدٍ، فلمّا دَخَلَتْ همزةُ النقل أَكْسبتها مفعولاً ثانياً، فـ «نا» مفعولٌ أولُ، و﴿مناسِكَنا﴾ مفعولٌ ثان.

الشوكاني: وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، هي من الرؤية البصرية. وقرأ عمر بن عبد

١. البحر المحيط، أبو حيان (ت٧٥٤ هـ).

العزيـز، وقتـادة، وابـن كثـير، وابـن محيصن، وغيرهـم «أرنـا» بسـكون الـراء، ومنه قول الشاعر:

أرنَـا إدَاوةَ عَبْد الله يَمْلؤُهَا (نملؤها) مِـنْ مَـاءِ زَمْـزَمَ إنَّ القَـوْمَ قَـدْ ظَمِئواُ

المنـار: ﴿**وَأَرِنَـا مَنَاسِـكَنَا**﴾ أي علّمنـا إيّاهـا علـماً يكـون كالرؤيـة البصريّـة في الجلاء والوضـوح.

فيـا أنَّ **السـيد السـبزواري** يذهـب إلى أنَّ المـراد مـن الرؤيـة هـي الرؤيـة الحقيقـة كما يسـمّيها، يختـم بهـا كلامه عـن الآيـة، حيث يقـول: وبعد هـذا كله، قـال: والمـراد بالرؤية هنـا الرؤيـة الحقيقية أي المعرفـة والإراءة، لا مجـرد الرؤية البصرية والتعليـم القولي، وتدلّ عـلى ذلـك روايـات كثيرة دالة عـلى أنَّ جبرائيـل كان معـه عليه السلام في جميع أعماله وأطـواره كما كان مـع نبيّنا الأعظـم صلى الله عليه وآله في حجّـة الوداع.[1]

ومـما قالـه النبيّـان عليهما السلام في دعائهما أنهـما طلبا تفهم طريـق العبـادة: ﴿**وَأَرِنَا مَنَاسِـكَنَا**﴾؛ ليعبد الله حـقَّ عبادته.

هذا ما صرّح به **الشيخ مكارم الشيرازي** في تفسيره للآية.[2]

أمـا ﴿**مَنَاسِـكَنَا**﴾، فقـراءة النسـك، وما المـراد منـه، أيضاً لهم فيهـا كلام بَينَ: إسـكان سـينها أو ضمّهـا، فقـد قرأ الحسـن: «نُسْـكِي» بإسـكان السـين، وهكـذا قرأها أبـو حياة والحسـن. فيـا جمهور النـاس قرأها: (ونسُـكي) بضم السـين. وبين كسر سـينها وفتحها، كـما يذكـر الطبري في تفسـيره لقوله تعالى: ﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَـكاً**﴾. سـورة الحجّ: ٦٧.

١. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، للسيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري ٢: ٤١-٤٢.

٢. انظـر جامـع البيـان في تفسـير القـرآن، الطـبري (ت٣١٠ هــ): الآية؛ مجمـع البيان في تفسـير القرآن، الطـبرسي (ت ٥٤٨ هـ)؛ تفسـير الجامع لأحـكام القرآن، القرطبي (ت٦٧١ هـ)؛ تفسـير الكشـاف، الزمخـشري (ت٥٣٨ هــ)؛ تفسـير أنـوار التنزيـل وأسرار التأويل، البيضـاوي (ت٦٨٥ هــ): الآية؛ الأمثـل في تفسـير كتـاب الله المنزل، للشـيخ ناصر مـكارم الشـيرازي ١: ٣٨٣.

حين قول:.. أنَّ المنسك فـيه لغتان: «مَنْسِك» بكسـر السين وفتـح الـميـم، وذلك من لغة أهل الـحجاز، و«مَنْسَك» بفتـح الـميـم والسـين جميعاً، وذلك من لغة أسـد. وقد قرىء بـاللغتـين جميعاً.

القرطبـي:.. وكلّ مـا يُتعبَّـد بـه إلى الله تعـالى يقـال لـه مَنْسَـك ومَنْسِـك. والناسـك: العابـد. **قـال النحاس**: يقال نَسَـك يَنْسُـك، فكان يجب أن يقـال على هذا: مَنْسُـك، إلّا أنه ليـس في كلام العـرب مَفْعُل.

وأما الأخفش، فقد ذكر الاختلاف في تسـميتها منسـكاً، وهذا كلامه: واحد المناسـك منسـك مثل مسـجد قـد اختلفوا في تسـميتها منسـكاً عـلى وجهـين: أحدهما: لأنـه معتاد ويـتردد النـاس إليـه في الحـجّ والعمرة، مـن قولهـم: إنَّ لفـلان منسـكاً، إذا كان له موضع معتـاد لخـير أو شرّ، فسـمّيت بذلك مناسـك الحـجّ لاعتيادها. والثـاني: أنّ النسـك عبادة الله تعـالى، ولذلك سُـمِّي الزاهد ناسـكاً لعبادة ربّه، فسـميت هذه مناسـك؛ فهي عبادات تطلـق عـلى الأماكـن: ﴿لِّـكُلِّ أُمَّـةٍ جَعَلْنَا مَنسَـكاً هُمْ نَاسِـكُوهُ ...﴾. سـورة الحـج: ٦٧. عـن ابـن عباس. وقيـل: مكانـاً يألفونه وموضعـاً يعتادونه لعبـادة الله ومناسـك الحجّ من هـذا؛ لأنهـا مواضـع العبادات فيـه فهي متعبـدات الحجّ. وقيـل: موضع قربـان أي متعبد في إراقـة الدمـاء مني أو غيره عـن مجاهد وقتـادة. وتطلق على الأفعـال: ﴿قُـلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَـاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، سـورة الأنعام: ١٦٢.

فالنسـك هنـا في بعض معانيـه هو جميع أعـمال الـبرّ والطاعات من قولك نسـك فلان فهـو ناسـك، إذا تعبّـد، أو الديـن كما عن الحسـن نُسُـكِي: دينـي. أو العبادة، كـما جاء عن الجبائـي والزجاج: ﴿نُسُـكِي﴾: عبـادتي، فقال الزجـاج: عبادتي ومنه الناسـك الذي يتقرّب إلى الله بالعبادة...

الطـوسي: والنسـك في اللغـة: العبـادة. ورجـل ناسـك عابـد، وقـد نسـك نسـكا. والنسـك: الذبيحـة يقـال: مـن فعـل كـذا فعليـة نسـك، أي دم يهريقـه، ومنه قولـه: ﴿أو

نُسُـك﴾ أي دم واسـم تلك الذبيحة: النسـيكة والموضع الذي يذبح فيه المناسـك والمنسك هو النسـك نفسـه. قـال الله تعـالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّـةٍ جَعَلنَا مَنسَـكاً**﴾، ويقال: نسـك ثوبه أي غسـله وقـال ابن دريـد: النسـك أصله ذبائـح كانت تذبـح في الجاهلية. والنسـيكة: شـاة كانـوا يذبحونهـا في الحـرم في الإسـلام، ثـم نسـخ ذلـك بالأضاحي قال الشـاعر:

وذا النصـب المنصـوب لا تنسـكنه ولا تعبـد الشـيطان والله فاعبـدا

وأصل الباب العبادة وقيل: إنَّ النسك الغسل.

قال الشاعر:

فـلا ينبـت المرعـى سـباخ عراعـر ولـو نسـكت بالمـاء سـتة أشـهر

أي غسلت ذكره الحسين بن علي المغربي. قال: وليس بمعروف.

والـرازي يقول: فالنسـك كلّ مـا تقربت به إلى الله تعـالى، إلّا أنَّ الغالب عليه في العرف الذبح.

فيـما خصّصـه بعـض بالذبيحة؛ فالنّسـك جمع نسِـيكة، وهـي الذّبيحة: كما عن سـعيد بـن جبـير ومجاهـد والضحـاك وقتـادة والسـدي ﴿**نُسُـكِي**﴾: ذبيحتـي للحـج والعمـرة. والمعنـى: ذَبْحِـي في الحـجّ والعمرة.

السـمين الحلبـي: والمناسِـكُ واحدُهـا: مَنْسَـك بفتح العـين وكسرها، وقد قـرىء بهما والمفتـوحُ هـو المقيسُ لانضمام عـين مضارعه. والمنسَـكُ: موضعُ النسُـك وهـو العبادة.[1]

١. انظـر مجمـع البيـان للطـبرسي؛ تفسـير القرآن العظيـم لابن كثـير (ت٧٧٤ هـ)؛ التفسـير الكبـير للإمام الطـبراني (ت٣٦٠ هـ)؛ تفسـير المنار، محمد رشـيدبن علي رضـا (ت١٣٥٤ هـ)؛ الجامـع لأحكام القرآن للقرطبي؛ تفسـير الدرّ المصون، السـمين الحلبي (ت٧٥٦ هـ)؛ تفسـير فتح القدير، الشوكاني (ت١٢٥٠ هــ)؛ تفسـير أنوار التنزيـل وأسرار التأويل، للبيضاوي (ت٦٨٥هـ)؛ تفسـير اللبـاب في علوم الكتاب، ابـن عـادل (ت٨٨٠ هـ)؛ تفسـير الكشـاف للزمخـشري (ت٥٣٨ هــ)؛ جامـع البيان في تفسـير القرآن للطـبري (ت٣١٠ هـ)؛ مفاتيـح الغيب للرازي (ت٦٠٦ هــ): الآية...

وأما عن تأويل قوله تعالى: ﴿وأرِنا مَناسِكَنا﴾: **فالطبري يقول**:.. اختلفوا في تأويل قوله: ﴿مَناسِكَنا﴾، فقال بعضهم: هي مناسك الحجّ ومعالمه؛ فعن قتادة: فأراهما الله مناسكهما: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، حتى أكمل الله الدين أو دينه. وأيضاً عن قتادة قال: أرنا نُسكنا وحَجَّنا.

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة: المناسك المذابح. فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك: وأرنا كيف نَنْسُكُ لك يا ربنا نسائكنا، فنذبحها لك.. عن ابن جريج، عن عطاء: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، قال: ذَبْحَنا.

وأيضاً عن ابن جريج، عن عطاء، قال: مذابحنا. وكذا عن مجاهد وعبيد بن عمير مثله.

ويذكر الطبري: أنَّ المناسك وهي جمع «مَنْسِك»، وهو الموضع الذي ينسك لله فيه، ويتقرّب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إما بذبح ذبيحة له، وإما بصلاة أو طواف أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة؛ ولذلك قيل لمشاعر الحجّ: مناسكه؛ لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس، ويتردّدون إليها.

ثمَّ يقول: وأصل المَنْسِك في كلام العرب: الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه، يقال: لفلان منسك، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شرّ؛ ولذلك سميت المناسك مناسك، لأنها تُعتاد ويتردّد إليها بالحجّ والعمرة، وبالأعمال التي يتقرّب بها إلى الله.

وقد قيل: إنَّ معنى النسك: عبادة الله، وأنَّ الناسك إنما سمّي ناسكاً بعبادة ربّه، فتأوّل قائل هذه المقالة قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وعَلِّمْنا عبادتك كيف نعبدك، وأين نعبدك، وما يرضيك عنا فنفعله.

ثمَّ يُعقب قائلاً: وهذا القول وإن كان مذهباً يحتمله الكلام، فإنَّ الغالب على

معنى المناسك ما وصفنا قبل من أنها مناسك الحجّ التي ذكرنا معناها.

(وأما عن مسألتهما) ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾:

فقد خرج هذا الكلام والقول للطبري من قول إبراهيم وإسماعيل على وجه المسألة منهما ربّهما لأنفسهما، وإنما ذلك منهما مسألة ربّهما لأنفسهما وذرّيتهما المسلمين، فلما ضمّا ذريتهما المسلمين إلى أنفسهما صارا كالمخبرين عن أنفسهم بذلك. وإنما قلنا: إنَّ ذلك كذلك؛ لتقدم الدعاء منهما للمسلمين من ذريتهما قَبْلُ في أوّل الآية، وتأخره بعد في الآية الأخرى. فأما الذي في أول الآية فقولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، ثمَّ جمعا أنفسهما والأمّة المسلمة من ذريتهما في مسألتهما ربّهما أن يريهم مناسكهم فقالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وأما التي في الآية التي بعدها ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾، سورة البقرة: ١٢٩. فجعلا المسألة لذريتهما خاصة. وقد ذكر أنها في قراءة ابن مسعود: «وأرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ»، يعني بذلك: وأر ذريتنا المسلمة مناسكهم...[1]

الطوسي: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فالمناسك ههنا المتعبدات، قال الزجاج: كلّ متعبد منسك.

وقال الجبائي: المناسك هي ما يتقرب به إلى الله من الهدى، والذبح، وغير ذلك من أعمال الحج والعمرة.

وقال عطا: مناسكنا: مذابحنا.

وقال قتادة: أراهما الله مناسكها الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة عن عرفات والإفاضة من جمع، ورمي الجمار حتى أكمل الله الدين.

ويصف الشيخ الطوسي قول قتادة هذا بأنه القول أقوى؛ لأنه العرف في معنى المناسك.

---

١. جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (ت ٣١٠ هـ): الآية.

هـذا ما ذكـره كلٌّ من الطبري والطوسي في الآيـة، أما الرازي فيذكر قولـين في ﴿أَرِنَا...﴾ يراهما قولين معتبريـن، فيما القول الثالث يضعفه.

الأول: معنـاه علمنـا شرائـع حجّنـا إذ أمرتنـا ببنـاء البيت لنحجّـه وندعـوا الناس إلى حجّـه، فعلمنـا شرائعـه ومـا ينبغـي لنـا أن نأتيه فيـه من عمـل وقول مجاز هذا مـن رؤية العلـم، قـال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، سورة الفرقان: ٤٥.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ﴾، سورة الفيل: ١.

الثـاني: أظهرهـا لأعيننـا حتـى نراهـا. قـال الحسـن: إنَّ جبريـل عليه السلام أرى إبراهيم عليه السلام المناسـك كلّهـا، حتـى بلغ عرفـات، فقال: يـا إبراهيـم، أعرفت مـا أريتك من المناسـك؟ قـال: نعـم. فسـميت عرفات.

فلـما كان يـوم النحـر، أراد أن يزور البيت، عرض له إبليس فسـد عليـه الطريق، فأمره جبريـل عليه السلام أن يرميـه بسـبع حصيـات ففعـل، فذهـب الشـيطان. ثم عـرض لـه في اليوم الثـاني والثالـث والرابـع، كلّ ذلك يأمـره جبريل عليه السلام برمـي الحصيات.

وههنـا قـول ثالث، وهـو أنَّ المـراد العلم والرؤيـة معاً. وهـو قول القـاضي؛ لأنَّ الحجَّ لايتـمُّ إلّا بأمـور بعضها يعلـم ولا يرى، وبعضهـا لا يتم الغرض منـه إلّا بالرؤية، فوجب حمـل اللفـظ عـلى الأمرين جميعـاً. وهـذا ضعيف؛ لأنه يقتضـي حمـل اللفظ عـلى الحقيقة والمجـاز معاً وأنـه جائز.

فبقـي القـول المعتبر وهـو القـولان الأولان، فمن قال بالقـول الثاني قال: إنّ المناسـك هـي المواقـف والمواضع التـي يقام فيها شرائـع الحجّ كمنـى وعرفات والمزدلفـة ونحوها. ومـن قال بـالأول قال: إنَّ المناسـك هي أعـمال الحجّ كالطـواف والسـعي والوقوف. وفي المسـألة الثانيـة يذكـر أنَّ النسـك هـو التعبد، يقـال للعابد ناسـك ثم سـمي الذبح نسـكاً والذبيحـة نسـيكة، وسـمي أعـمال الحجّ مناسـك. قال صلى الله عليه وآله: «خـذوا عني مناسـككم لعلّي

لا ألقاكم بعد عامي هذا».

والمواضع التي تقام فيها شرائع الحجّ تسمى: مناسك أيضاً، ويقال: المنسك بفتح السين بمعنى الفعل، وبكسر السين بمعنى المواضع، كالمسجد والمشرق والمغرب، قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ سورة الحجّ: ٦٧ . قرىء بالفتح والكسر، وظاهر الكلام يدل على الفعل، وكذلك قوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم».

أمرهم بأن يتعلموا أفعاله في الحجّ لا أنه أراد: خذوا عني مواضع نسككم.

ويعقب الرازي قائلاً: إذا عرفت هذا فنقول: إن حملنا المناسك على مناسك الحجّ، فإن حملناها على الأفعال، فالإراءة لتعريف تلك الأعمال، وإن حملناها على المواضع، فالإراءة لتعريف البقاع.

أما من حمل المناسك على الذبيحة فقط، فقد خطّأه الرازي قائلاً: من المفسرين من حمل المناسك على الذبيحة فقط، وهو خطأ؛ لأنَّ الذبيحة إنما تسمى نسكاً لدخولها تحت التعبد، ولذلك لايسمون ما يذبح للأكل بذلك، فما لأجله سميت الذبيحة نسكاً، وهو كونه عملاً من أعمال الحجّ قائم في سائر الأعمال، فوجب دخول الكلّ فيه.

ثمَّ يقول: وإن حملنا المناسك على ما يرجع إليه أصل هذه اللفظة من العبادة والتقرب إلى الله تعالى، واللزوم لما يرضيه، وجعل ذلك عاماً لكلّ ما شرعه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، أي علمنا كيف نعبدك، وأين نعبدك، وبماذا نتقرب إليك حتى نخدمك به كما يخدم العبد مولاه.[1]

الجصاص: وَالأَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، سَائِرُ أَعْمَال الْحَج؛ لأَن اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُمَا ببنَاءِ الْبَيْتِ لِلْحَج، وقَدْ رَوَى ابْنُ أَبي لَيْلَى عَنْ ابْن أبي مليْكَةَ عَنْ عَبْدِ الله بْن عُمَرَ عَنْ النَبي ﷺ، قال: «أتى جبرئيل إبْرَاهِيم عليهما السلام فَرَاحَ بِهِ إلَى مَكةَ ثُمَّ مِنًى». وذَكَرَ أفْعَالَ الْحَج عَلَى نَحْو مَا فَعَلَهُ النبي ﷺ فِي حَجَّتِهِ، قَالَ: ثُمَّ أَوْحَى اللهُ إلَى نَبيهِ ﷺ

١. مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ).

﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾. وكذلك أرسل النبيّ ﷺ إلى قَوْم بعَرَفَاتٍ وُقُوفٍ خَلْفَهُ وَهُوَ وَاقِفٌ بهَا، فَقَال: «كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام».

قوله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، يَدُل عَلَى لُزُوم اتِّبَاع إِبْرَاهِيمَ فِي شَرَائِعِهِ فِيمَا لَمْ يَثْبُتْ نَسْخُهُ، وأفَادَ بذَلِكَ أنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَهُوَ رَاغِبٌ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إذ كانت مِلَّةِ النبيّ ﷺ مُنْتَظِمَةً لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَزَائِدَةً عَلَيْهَا.[1]

وعن المراد من النسك يقول السبزواري: النسك: العبادة والناسك: العابد، والمنسك: هو الموضع المعدّ للعبادة، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ﴾ سورة الحج، الآية: ٦٧.

ولكن اختصَّ اللفظ في العرف الخاص بأفعال الحجّ، قال تعالى: ﴿فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ﴾ سورة البقرة: ٢٠٠.

ومع هذا لم ينفِ السيد أنَّ النسك يعني الهدي، فقال: يستعمل في خصوص الهدي أيضاً، قال تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

والنسك هو الهدي وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

وعن نبينا الأعظم ﷺ فيما رواه الفريقان بطرق متواترة: «خذوا عني مناسككم». وهذا ما سنتعرض إليه في الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كيفية أداء المناسك:

مناسك الحجّ الإبراهيميّة تُعدُّ من أهم ما توفّرت عليه المنظومة العباديّة التي

١. كتاب أحكام القرآن للجصاص، قمحاوي: الآية.

يُتقرب بها من قبل العباد إلى بارئهم عزَّ وجلَّ، وبعبارة أخرى هي تلك الخطوات التي أراها الله سبحانه وتعالى كلاً من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وهذه المناسك ومعرفتها وأداؤها تكفلت بها مضامين الروايات وذكرتها الأخبار عن عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والتي تحدّثت عن مناسك الحجّ وكيفية أدائها.

وقبل ذكرها، نُشير إلى أنها لا تخلو من اختلاف نجده بين متونها، ففي وقت الأذان بالحجّ، أوقع بعد فراغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت أو بعد معرفته لمناسك الحجّ وأدائها بإرشاد جبريل عليه السلام، وكذا في مكان وقوعه؛ المقام أو جبل قبيس أو شبر،...؟

ـ لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام، جاء جبريل عليه السلام، وفي رواية قال: أي ربّ قد فعلت، فأرنا مناسكنا، أي: أبرزها لنا وعلِّمْناها، وقيل: أرنا مناسكنا: مذابحنا، فجاءه جبريل، فقال: طف به سبعًا هو وإسماعيل يستلمان الأركان كلّها في كلّ طواف، وكان آدم يستلم الأركان كلّها قبل إبراهيم عليه السلام، فلما أكملا سبعًا، صليا خلف المقام ركعتين.

فقام معه جبريل، فأراه المناسك كلّها؛ الصفا والمروة، ومنى، ومزدلفة، وعرفة، فلما دخل منى وهبط من العقبة تمثل له إبليس، وفي رواية: بعث الله عزّ وجلّ جبريل فحجّ به حتى إذا جاء يوم النحر، عرض له إبليس عند جمرة العقبة، فقال له جبريل عليه السلام: إرمه فرماه إبراهيم عليه السلام بسبع حصيات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة السفلى، فقال له جبريل عليه السلام: إرمه فرماه بسبع حصيات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة الوسطى، فقال له جبريل عليه السلام: كبر وارمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصى الخذف فغاب عنه إبليس، وفي رواية: فرماه من الغد واليوم الثالث كذلك، ثم مضى إبراهيم عليه السلام في حجّه وجبريل عليه السلام يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتى انتهى إلى عرفات، فلما انتهى إليها قال له جبريل عليه السلام: أعرفت مناسكك؟ قال إبراهيم عليه السلام: نعم؛ فسميت عرفات بذلك. فلما فرغ من الحجّ، أُمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحجّ. ففي هذه الرواية: فلما فرغ من الحجّ، أُمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحجّ.

خلافاً لما جاء في الرواية الثانية، والتي فيها: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، قال: يا ربّ قد فرغت، فأوحى الله إليه أن أذن في الناس بالحجّ.

فالرواية الأولى وقع الأذان بعد الفراغ من الحجّ. أي بعد أدائه عليه السلام لمناسك الحجّ. فيما الثانية بعد فراغه من بناء البيت. فلما أمر أن يؤذن بالحجّ، قال: يا ربّ وما يبلغ صوتي؟ فقال الله تعالى: أذِّن وعليَّ البلاغ.

وفي رواية: قال: وكيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس أجيبوا ربَّكم ثلاث مرات! فَعَل إبراهيم عليه السلام على المقام، فارتفع به حتى صار أرفع الجبال وأطولها.

وفي رواية: صعد أبا قبيس وأذَّن بالحجّ، وفي رواية: علا على شبر، وجمعت له الأرض يومئذ سهلها وجبلها وبرها وبحرها وإنسها وجنها حتى أسمعهم جميعاً، وتطأطأت الجبال، وفي رواية: خفضت الجبال رؤوسها ورفعت له القرى فأدخل إصبعيه في صماخي أذنيه، وأقبل بوجهه يمنًا وشامًا وشرقًا وغربًا، وبدأ بشقّ اليمن، فقال: أيّها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأجيبوا ربَّكم، وفي رواية: إنَّ الله قد أمركم بحجّ هذا البيت؛ ليثيبكم به الجنّة ويجيركم من عذاب النار فحجوا؛ فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلّها: لبيك اللهم لبيك، وفي رواية: أي كلّ رطب ويابس، وسمعه من بين المشرق والمغرب، وأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فليس أحد يحجّ إلى يوم القيامة إلّا من أجاب نداء إبراهيم عليه السلام.

وإنما حجّهم على قدر إجابتهم يومئذ، فمن أجابه مرة حجّ مرةً، ومن أجابه مرتين حجّ مرتين، ومن أجابه أكثر، فأكثر على حسب إجابته، ويروى أنه كان بين ذلك وبين أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله ثلاثة آلاف سنة، وكان أول من أجاب دعوة إبراهيم عليه السلام بالتلبية أهل اليمن. وذهب جماعة إلى أنَّ المأمور في قوله تعالى: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**﴾ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي روايـة اسـتقبل إبراهيم اليمن ودعـا إلى الله وإلى حجّ بيته، فأجيـب أن لبيك لبيك، ثـمَّ اسـتقبل المـشرق فدعـا إلى الله وإلى حـجّ بيته، فأجيـب أن لبيـك لبيك، ثـمَّ إلى المغرب بمثـل ذلـك، ثم إلى الشـام بمثل ذلك، ثم حجّ إبراهيم بإسـماعيل وبمن معه من المسـلمين مـن جرهـم، وهم سـكان الحـرم يومئذ مع إسـماعيل، وهـم أصهـاره، وصلّى بهـم الظهر والعـصر والمغـرب والعشـاء بمنى، ثـم بات بهم حتـى أصبح وصـلّى بهم الغـداة، ثم غدا بهـم إلى نمـرة، فقـام بهم هنالـك حتى إذا مالت الشـمس جمع بـين الظهر والعصـر بعرفة في مسـجد إبراهيـم، ثـم راح بهـم إلى الموقـف مـن عرفـة، وهو الموقـف الذي يقـف عليه الإمـام اليـوم فوقـف بهم، فلـما غربت الشـمس، دفـع به وبمـن معه حتـى أتـى المزدلفة، فجمـع بـين الصلاتـين المغرب والعشـاء الآخرة، ثـم بات حتـى إذا طلع الفجـر صلّى بهم الغـداة، ثـم وقـف بـه عـلى قـزح مـن المزدلفة وبمـن معـه، وهـو الموقـف الذي يقـف به الإمـام اليـوم حتـى إذا أسـفر غـير مـشرق، دفع بـه وبمن معـه يريـه ويعلمه كيـف يرمي الجـمار حتـى فرغ مـن الحجّ كلّـه، ثم انـصرف إبراهيـم عليه السلام راجعاً إلى الشـام، فتـوفي بها.

إضافـةً لهـذا، فهنـاك أخبار وروايات عن المناسـك وكيفيتهـا، وفي أكثرهـا وردت هذه العبارات: «فأرنا مناسـكنا.. فأراه مناسـكه.. أراهما الله مناسـكهما.. ربّ أرنا مناسكنا..». منهـا: مـا أخرجه ابن جرير من طريق ابن المسـيب عـن عليٍّ عليه السلام، قال: لما فـرغ إبراهيم عليه السلام مـن بناء البيـت، قال: قد فعلـتُ أي رب، فأرنا مناسـكنا، أبرزها لنـا، علّمناها، فبعث الله جبريل فحـجَّ به...

وعـن ابـن عباس قـال: كان المقام في أصـل الكعبة، فقـام عليه إبراهيـم عليه السلام، فتفرجت عنـه هـذه الجبـال أبو قبيس وصاحبـه إلى ما بينـه وبين عرفات، فـأراه مناسـكه حتى انتهى إليه، فقـال: عرفت؟ قـال: نعم. فسـميت عرفات.

وأخـرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿**وَأَرِنَا مَنَاسِـكَنَا**﴾ قال: أراهما الله مناسـكهما؛ الموقـف بعرفـات، والإِفاضـة مـن جمـع، ورمـي الجـمار والطـواف بالبيت، والسـعي بين

الصفا والمروة.

وفي بعضها أنَّ جبريل أراه المناسك قبل الأذان بالحجّ، منها:.. عن مجاهد قال: قال إبراهيم عليه السلام: رب أرنا مناسكنا. فاتاه جبريل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد. فرفع القواعد وأتمَّ البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه، فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه. فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس، فقام عند الجمرة الوسطى، فلما حاذى به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه. فكبر ورمى، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة القصوى، فقال له جبريل: كبر وارمه. فكبر ورمى، فذهب إبليس، وكأن الخبيث أراد أن يدخل في الحجّ شيئاً، فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب حتى أتى به عرفات قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاث مرات. قال: نعم. قال: فأذن في الناس بالحجّ. قال: وكيف أؤذن؟ قال: قل يا أيها الناس أجيبوا ربّكم ثلاث مرات، فأجاب العباد لبيك اللهم ربّنا لبيك، فمَن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاجّ!

وفي بعضها بعد الأذان بالحجّ. الطبري... عن السدي في ﴿وأرنَا مَناسِكَنا﴾، قال: لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بنيان البيت، أمره الله أن ينادي فقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾، فنادى بين أخشبي مكة: يا أيها الناس، إنَّ الله يأمركم أن تحجّوا بيته. قال: فوقرت في قلب كلّ مؤمن، فأجابه كلّ من سمعه من جبل أو شجر أو دابة: لبيك لبيك، فأجابوه بالتلبية: لبيك اللهمَّ لبيك. وأتاه من أتاه، فأمره الله أن يخرج إلى عرفات ونَعَتَها فخرج، فلما بلغ الشجرة عند العقبة، استقبله الشيطان، فرماه بسبع حَصَيَاتٍ يكبر مع كلّ حصاة، فطار فوقع على الجمرة الثانية أيضاً، فصدّه، فرماه وكبر، فطار فوقع على الجمرة الثالثة، فرماه وكبر. فلما رأى أنه لا يُطيقه، ولم يدر إبراهيم أين يذهب، انطلق حتى أتى ذا المجاز، فلما نظر إليه فلم يعرفه جاز، فلذلك سمي ذا المجاز.

ثم انطلق حتى وقع بعرفات، فلما نظر إليها عرف النعت، قال: قد عرفتُ فسميت عرفات. فوقف إبراهيم بعرفات. حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع، فسميت المزدلفة. فوقف بجمع. ثم أقبل حتى أتى الشيطان حيث لقيه أوّل مرّة، فرماه بسبع حصيات سبع مرّات، ثم أقام بمنى حتى فرغ من الحجّ وأمره. وذلك قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾. ولا أدري أهذه هي الأقوال التي يقصدها أبو حيان في تفسيره البحر المحيط؛ أنها مضطربة النقل بقوله: وذكر المفسرون في كيفية تأدية إبراهيم وإسماعيل هذه المناسك أقوالاً سبعة مضطربة النقل. وذكروا أيضاً من حجّ هذا البيت من الأنبياء، ومن مات بمكة منهم. وذكروا أنه مات بها نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، وغيرهم، ولم تتعرض الآية الكريمة لشيء من ذلك، فتركنا نقل ذلك على عادتنا.[1]

وإنَّ مناسك الحجَّ الإبراهيمي قد ورثها العرب الوثنيون منهم والحنفاء الذين ظلّوا يقصدون البيت الحرام من هنا وهناك، ليؤدّوا منسك الحجّ، أو بالحقيقة ما بقي منه، فقد حُرّف بعضه، وتُرك آخر، ولكن ما بقي يُشكّل أصلاً مهماً من مراسيم الحجّ وشعائره، فالطواف بأشواطه السبعة باق وكذا السعي، وهكذا المواقف الأُخرى كالوقوف بمنى.. وكالهدي..، إلّا أنَّ الحمس وهم المتشددون يرون أنهم من قريش من أهل مكة، يخرجون فقط إلى نمرة، ولا يدخلون عرفات، في حين أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله في حجة الوداع، وقف قليلاً عند نمرة، ثم اندفع نحو عرفات...

وسيأتينا الكلام عن الدور الكبير الذي بذله رسول الله صلى الله عليه وآله في تبليغ فريضة الحجّ وتعليم مناسكه في الآية الثانية.

بقي من هذه الآية، فقرتها الأخيرة: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ التي خَتَمَا بها دعاءهما لهذه الذرية وما انبثق عنها من أُمّة صالحة؛ ليغفر لهم ويتوب عليهم...

١. البحر المحيط، أبو حيان (ت٧٥٤ هـ): الآية .

وخاتمة دعاء كلٍّ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عدّها **الآلوسي**: تعليل للدعاء، ومزيد استدعاء للإجابة، وتقديم التوبة للمجاورة، وتأخير الرحمة لعمومها، ولكونها أنسب بالفواصل.

فيما اكتفى **ابن عاشور** بأنها تعليل لجمل الدعاء.

يقول الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿**وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوابُ الرَّحِيمُ**﴾: أما التوبة فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب، فتوبة العبد إلى ربّه: أوبته مما يكرهه الله منه بالندم عليه والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الربّ على عبده: عوده عليه بالعفو له عن جُرْمه والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرةً له منه، وتفضلاً عليه.

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب، فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟

قيل: إنه ليس أحد من خلق الله إلّا وله من العمل فيما بينه وبين ربّه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة.

فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا من ذلك، وإنّما خَصَّا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأنَّ ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعلا ما فعلا من ذلك سنةً يقتدي بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تَنَصُّل من الذنوب إلى الله.

وجائز أن يكونا عنيا بقولهما: ﴿**وَتُب عَلَينَا**﴾ وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا الذين أعلمتنا أمرهم من ظلمهم وشركهم، حتى ينيبوا إلى طاعتك. فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنيُّ به ذريتهما، كما يقال: أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرّني فلان: إذا برّ ولده.

وأما قوله: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ التواب الرَّحِيمُ**﴾ فإنه يعني به: إنك أنت العائد على عبادك بالفضل والمتفضل عليهم بالعفو والغفران، الرحيم بهم، المستنقذ من

تشاء منهم برحمتك من هلكته، المنجي من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك.

لقد سألا الله تعالى التوبة مع كونهما معصومَين تعليماً لذرّيتهما دون أن يفردا نفسيهما عن هذه الذرية ويعزلاها عن هذه الأُمّة، فدعوا للجميع؛ ليغفر لهم ويتوب عليهم..، أو أنهما قالا هذه الكلمة على وجه التسبيح والتعبد والانقطاع إلى الله سبحانه؛ ليقتدي بهما الناس فيها...

الطوسي: ﴿**وَتُبْ عَلَيْنَا**﴾، أي ارجع علينا بالرحمة والمغفرة وليس فيه دلالة على جواز الصغيرة، أو فعل القبيح عليهم. ومن ادعى ذلك، فقد أبطل. وقال قوم: معناه تب على ظلمة ذريتنا. وقيل: بل قالا: ذلك انقطاعا اليه تعالى تعبداً ليقتدى بهما فيه. وهو الذي نعتمده...

فيما فصّل **الآلوسي** ذلك؛ بعد أن ذكر أنَّ ﴿**وَتُبْ عَلَيْنَا**﴾: أي وفقنا للتوبة أو اقبلها منا. قائلاً: والتوبة تختلف باختلاف التائبين: فتوبة سائر المسلمين: الندم والعزم على عدم العود وردّ المظالم إذا أمكن، ونية الردّ إذا لم يمكن. وتوبة الخواص: الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء، والفتور في الأعمال، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال.

وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات، والترقي في المقامات.

فإن كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طلبا التوبة لأنفسهما خاصة، فالمراد بها ما هو من توبة القسم الأخير، وإن كان الضمير شاملاً لهما وللذرية كان الدعاء بها منصرفاً لمن هو من أهلها ممن يصح صدور الذنب المخل بمرتبة النبوة منه.

وإن قيل: إنَّ الطلب للذرية فقط، وارتكب التجوز في النسبة إجراءً للولد مجرى النفس بعلاقة البعضية؛ ليكون أقرب إلى الإجابة، أو في الطرف حيث عبر عن الفرع باسم الأصل، أو قيل: بحذف المضاف أي – على عصاتنا – زال الإشكال كما إذا قلنا: إنَّ ذلك عمّا فرط منهما من الصغائر سهواً، والقول بأنهما لم يقصدا الطلب حقيقة، وإنما

ذكـرا ذلـك للتشريع وتعليم النـاس أنّ تلك المواضـع مواضع التنصل، وطلـب التوبة من الذنـوب بعيـد جدًّا، وجعـل الطلب للتشبيـت لا أراه هنا يجدي نفعاً - كـما لا يخفى - وقرأ عبـدالله «وَتُبْ عَلَيْهِـمْ». بضمير جمـع الغيبة أيضاً.

الـرازي:.. أنـه تعالى لما أعلـم إبراهيـم عليه السلام أنّ في ذريته من يكون ظالمـاً عاصياً، لا جرم سـأل هاهنـا أن يجعـل بعـض ذرّيته أمّـةً مسـلمةً، ثم طلب منـه أن يوفـق أولئـك العُصَاة للتوبـة، فقـال: ﴿**وَتُـبْ علَيْنَا**﴾. أي عـلى المُذْنبين من ذرّيتنا، والأب المشـفق عـلى ولده إذا أذنـب ولـده، فاعتـذر الوالد عنـه، فقد يقـول: أجرمت وعصيـت فاقبل عُـذْري، ويكون مـراده: أنَّ ولـدي أذنب فاقبـل عُذْره؛ لأنَّ ولد الإنسـان يجري مجرى نفسـه، والذي يقوي هـذا التأويـل وجـوه: **الأول**: ما حكـى الله تعالى في سـورة «إبراهيـم» أنه قـال: ﴿**وَٱجْنُبْنِي وَبَـنِيَّ أَن نَّعْبُـدَ ٱلْأَصْنَـامَ * رَبِّ إِنَّهُـنَّ أَضْلَلْـنَ كَثِـيراً مِّـنَ ٱلنَّـاسِ فَمَن تَبِعَـنِي فَإِنَّهُ مِـنِّي وَمَنْ عَصَـانِي فَإِنَّكَ غَفُـورٌ رَّحِيمٌ**﴾. سـورة إبراهيـم: ٣٥-٣٦. فيحتمل أن يكون المعنـى: ومـن عصـاني فإنّـك قـادر عـلى أن تتـوب عليه إن تـاب، وتغفـر له ما سـلف من ذنوبـه. **الثـاني**: ذكـر أنَّ في قراءة عبـد الله: وأرهم مناسـكهم وتب عليهم. **الثالـث**: أنه قال عطفـاً عـلى هذا: ﴿**رَبَّنَـا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولاً مِّنْهُمْ**﴾. **الرابـع**: تأولوا قوله تعـالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَـاكُمْ ثُـمَّ صَوَّرْنَـاكُمْ**﴾. سـورة الأعراف: ١١. بجعـل خلقه إياه خلقـاً لهم إذ كانـوا منـه، فكذلك لا يبعد أن يكـون قوله: ﴿**أَرِنَـا مَنَاسِـكَنَا**﴾، أي أر ذريتنا.[1]

للبحث صلة

١. جامـع البيـان في تفسـير القـرآن، الطـبري (ت٣١٠ هــ)؛ روح المعـاني، الآلـوسي (ت١٢٧٠هــ)؛ التحريـر والتنويـر، لابـن عاشـور؛ مجمـع البيان في تفسـير القـرآن، الطـبرسي (ت٥٤٨ هــ)؛ مفاتيح الغيـب، للـرازي: الآية.